بسم الله الرحمن الرحيم

وجوب الفصام وحتمية الصدام بين الكفر والإسلام

تاليف

الشيخ أبي الحسن رشيد

اللجنة الإعلامية

للجماعة السلفية للدعوة والقتال

الطبعة الأولى

جمادى الأولى/1427 هـ

قال الله تعالى

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ}

{إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا}.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عن سلمة بن نفيل الكندي قال: كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل: يا رسول الله أذال الناس الخيل ووضعوا السلاح وقالوا لا جهاد قد وضعت الحرب أوزارها، فأقبل رسول الله بوجهه وقال: (كذبوا الآن الآن جاء القتال ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة وحتى يأتي وعد الله)[1].

وفي الحديث بيان بقاء الجهاد إلى قيام الساعة.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده، وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الصغار والذلة على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم) فبالسيف الناصر والكتاب الهادي عزّ الإسلام وظهر في مشارق الأرض ومغاربها... وفي صفة رسول الله في الكتب المتقدمة " بيده قضيب الأدب"، فبعث الله رسوله ليقهر به أعداءه ومن خالف أمره، فالسيف من أعظم ما يعتمد في الحرب عليه ويرهب به العدوّ وينصر الدّين ويذل الله الكافرين فالسيوف عزّ لأهلها وسلطان.

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من علم الرمي ثم تركه فليس منا أوقد عصى): (وفي ذلك إشعار بأن من أدرك نوعا من أنواع القتال التي ينتفع بها في الجهاد في سبيل الله ثم تساهل في ذلك حتى تركه كان إثما شديدا لأن ترك العناية بذلك يدل على ترك العناية بالجهاد، وترك العناية بالجهاد يدل على ترك العناية بالدين لكونه سنامه وبه قام) اهـ.

بعد عقود من الزمن غاب فيها الإسلام عن القيادة، ها هي سيوف الإسلام تُسلّ من جديد على المرتدين والكفار والمنافقين، تُسلّ حتى يعبد الله وحده لا شريك له، ولكن العجيب أنه رغم نصوص الكتاب والسنّة الدالة على أن الخير والعزّ في هذه السيوف يزعم الزاعمون أنها تهلكة للإسلام والمسلمين.

وكأنهم لم يقرؤوا حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه من حديث أسلم بن يزيد قال: (كنا بالقسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم ملصقوا

[1] أخرجه النسائي وأحمد والطبراني والبخاري في التاريخ الكبير، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، 1935.

ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مه مه، لا إله إلا الله يلقي بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه وأظهر الإسلام، قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها وفأنزل الله تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}، فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد).

قال أبو عمران: (فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية)[2].

إننا في عصر ترك فيه أكثر المسلمين الجهاد في سبيل الله وصار قادتهم يهرولون نحو صلح ذليل مع عدوّ سلب الأرض وهتك العرض، ويسمّون ذلك سلاما، ويعلنون في كل حين أن ذلك السلام هو خيارهم الوحيد.

وقد صحّ في الحديث؛ أن الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.

قال الحافظ بن حجر: (وفيه أيضا بشرى ببقاء الإسلام وأهله إلى يوم القيامة لأن من لازم بقاء الجهاد بقاء المجاهدين وهم المسلمون)[3].

ومعنى ذلك؛ بطلان القول بأن الأمة ترجع إلى حالة من الاستضعاف كالتي كان عليها المسلمون في العصر المكّي، بحيث يكون فرض الجميع هو العفو والصلح.

فكان من مقتضى النّصح للأمّة؛ تعريف المسلمين بأن الأصل هو قيامهم بواجب الجهاد وأن عدم القيام به هو الاستثناء الذي لا يكون إلا لعارض يجب السعي الحثيث في إزالته، وأنه لا يجوز أن تصبح مقولة؛ إننا في عصر استضعاف، مشجبا يعلّق عليه المسلمون تقصيرهم وإهمالهم في القيام بما أوجبه الله عليهم من الجهاد والإعداد[4].

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (من مات ولم يغز ولم يحدّث نفسه به مات على شعبة من نفاق)[5].

وفي الحديث دليل على وجوب العزم على الجهاد.

---

[2] أخرجه أبو داود.
[3] فتح الباري: 56/6.
[4] مراحل تشريع الجهاد، عبد الآخر حماد الغنيمي، من 31 و 35، بتصرف.
[5] مسلم عن أبي هريرة.

في عصرنا الحاضر تطورت وسائل محاربة الدّين واستحدثت وسائل جديدة مثل المؤتمرات العالمية أو الإقليمية لوضع الخطط والنظريات لمقاومة الدّين ووضع استراتيجيات طويلة المدى للقضاء على الأصولية والتطرّف والإرهاب فتخطيط أهل زماننا أغلظ وأعظم من تخطيط السابقين ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

ومن خططهم استحداث تيارات ترفع شعار الإسلام من أجل الضرب من الداخل لها طروحات معيّنة وأهداف منها شقّ الصحوة[6]... هذه التيارات التي تسبح في فلك الطواغيت أصبح من أكبر أهدافها إجهاض الجهاد الذي أصبح يقضّ مضاجع الطواغيت قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا}، ومن المكر السيّء الذي لا ينتهي مسلسله ما دأبت عليه حكومات الطواغيت الحاكمين بغير شريعة رب العالمين، من استدراج القيادات الإسلامية إلى التنازل عن مفاهيم الإسلام الأساسية خاصة فريضة الجهاد في سبيل الله باسم الحوار والتفاوض[7].

فها هو الطاغوت يرفع شعار المصالحة والعفو الشامل وهم يؤيّدون... "فلو رأيتهم مساكين يرثى لحالهم وضياعهم وهم يتواثبون ويقفزون، والله أعلم بما يوعون، لأدركت منهم الخفة والطيش في أحلام طير، وهذا شأن من يخفق على غير قاعدة، ولو حاججت الواحد منهم لما رأيت عنده إلا قطعة القماس يتدثّر بها على غير بصيرة، فيصل إلى عقول السذّج من باب الغيرة نصرة السنّة وحدة الأمة، وهم أول من يضع رأس المعول لهدمها"[8].

لقد كتب علماء الجهاد ودعاته وسال الدم والمداد لإبطال زيف هؤلاء "وقد أوعبت الأمة في كل فن من فنون العلم إيعابا، فمن نوّر الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالا"[9].

وعلى اعتباري واحد من المجاهدين في سبيل الله؛ {حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} أردت أن أشارك في هذا المسعى المشكور – جهادا بقلمي – محررا هذه الرسالة، وحسبي فيها أني جمعت ورتّبت ما جاء منجّما في كتب أهل العلم والدعوة تسهيلا للانتفاع به إذا جمع[10].

أبو الحسن رشيد
الجماعة السلفية للدعوة والقتال

---

[6] الرد على الحلبي، المقدسي.
[7] الحوار مع الطواغيت مقبرة الدعاة، أيمن الظواهري: ص1.
[8] تصنيف الناس، بكر أبو زيد: ص40.
[9] مجموع الفتاوى: 665/10.
[10] تعمدت الإكثار من النقول لسببين؛ الأول: لتكون تلك النقول شارحة لبعضها البعض، الثاني: ليعلم القارئ الكريم أن ما نحن عليه من قناعات ليست وليدة السجون والظروف العصيبة وإنما كتبها علماء كان أكثرهم بعيدا عن ضيق السجن ولهيب المعركة.

الفصل الأول
مفاهيم لا بد أن تُضبط أولا

"ليس من العجب في شيء أن تكون آمال المسلمين وأهدافهم لم تأخذ حقها في الوجود والتطبيق لأن هذه الأهداف ما زالت لم تتشكل بعد في أذهانهم، إذ يحيطها الكثير من الجهل وسوء المعرفة، والمشكلة ما زالت كامنة في العلم وليس في الإرادة فقط كما يظن البعض"[11].

"مما لا شك فيه أن لكل منهج – حق أو باطل – ثوابت ومتغيّرات ثوابت لا تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان والأشخاص، القناعة واليقين بها يستند إلى نصوص شرعية وعلم لا يرقى إليه الشك، تلك الثوابت معالم واضحات يهتدي بها السائرون على طريق الحق، ومع مرور الزمن وتوالي حملات التضليل والتجهيل – المكثفة والمستمرة – بحقيقة هذا الدّين التي تنهض بها العلمانية الكافرة من جهة وفرق الصوفية والإرجاء من جهة أخرى تشوهت وانحسرت كثير من المفاهيم الشرعية في مفهومها الشرعي، واعترتها كثير من الشروحات الخاطئة التي شوّهت حقيقة معانيها في أذهان الناس الذين إذا ما خوطبوا بها حملوها على غير محملها الشرعي الصحيح مما جعلهم يقعون في المحظور ويكونوا طعما سهلا للشباك التي ينصبها الطواغيت"[12].

نعم ضعف العلم بهذه المفاهيم وضغط الواقع – ظروفا وأشخاصا – مع ما ذكرنا من حملة الطواغيت والمرجفين حوّل هذه المفاهيم الثوابت إلى متغيّرات تطالها تأويلات المنهزمين وتبنى عليها أحكام خاطئة وربما قاتلة.

ولكي يدرك المسلم عموما والمجاهد خصوصا حقيقة موقفه من دين الله عز وجل والجهاد في سبيله وموقفه من الطاغوت كان لزاما من تناول بعض المفاهيم كتمهيد ضروري للبحث، وهي كالتالي:

* * *

[11] مقال: الحاكمية، ما هو دليله؟ لأبي قتادة الفلسطيني.

[12] من ثوابت على درب الجهاد، للشيخ يوسف العييري، والطاغوت، لأبي بصير الطرطوسي، بتصرف يسير.

1) التوحيد:

التوحيد لغة؛ من واحد، أي وحّد أي أفرد، واصطلاحا؛ إفراد الله بما يستحق من التنزيه والعبادة.

"اعلم؛ أن التوحيد أوّل دعوة الرسل وأول منازل الطريق وأوّل مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}.

وقال صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)[13].

والتوحيد ثلاثة أنواع؛ أحدها الكلام في الصفات، والثاني توحيد الربوبية وبيان أن الله وحده خالق كل شيء، والثالث توحيد الإلهية؛ وهو استحقاقه سبحانه أن يعبد وحده لا شريك له"[14].

"وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد – توحيد الإثبات والمعرفة وتوحيد الطلب والقصد – فإن القرآن؛ إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه؛ فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته؛ فذلك من حقوق التوحيد ومكمّلاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة؛ فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحلّ بهم في العقبى من العقاب؛ فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كلّه في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم"[15].

واعلم؛ أن من تمام التوحيد تجريد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

"فالواجب كمال التسليم للرسول صلى الله عليه وسلم والانقياد لأمره، وتلقّي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يعارضه بخيال باطل يسمّيه معقولا، أو يقدّم آراء الرجال وزبالة أذهانهم، فيوحّده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان كما وحّد المرسِل، بالعبادة والخضوع والذلّ والإنابة والتوكّل، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما، توحيد المرسِل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يُحاكم إلى غيره ولا يرضى بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره

[13] البخاري ومسلم.
[14] شرح العقيدة الطحاوية باختصار: ص21 و 24.
[15] شرح الطحاوية: ص42 - 43.

وتصديق خبره على عَرَضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظّمه فإن أذنوا له نفّذه وقبل خبره[16]، وإلا فإنْ طلب السلامة فوّضه إليهم وأعرض عن أمره وخبره وإلاّ حرّفه عن مواضعه، فلأن يلقى العبد ربّه بكل ذنب ما خلا الإشراك بالله خير له من أن يلقاه بهذا الحال"[17].

"ولا شك أن من لم يُسلّم للرسول؛ نقص توحيده، فإنه يقول برأيه وهواه أو يقلّد برأيه ذا رأي وهوى بغير هدىً من الله، فينقص توحيده بقدر خروجه عما جاء به، فإنه قد اتّخذ في ذلك إلها غير الله"[18] اهـ.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (دين النبي صلى الله عليه وسلم؛ التوحيد، وهو معرفة لا إله إلا الله محمد رسول الله والعمل بمقتضاها، فإن قيل: كل الناس يقولونها! قيل منهم من يقولها ويحسب معناها أنه لا يخلق إلاّ الله ولا يرزق إلاّ الله وأشباه ذلك، ومنهم من لا يفهم معناها، ومنهم من لا يعمل بمقتضاها، ومنهم من لا يعقل حقيقتها، وأعجب من ذلك من عرفها من وجه وعاداها وأهلها من وجه، وأعجب منه من أحبّها وأنسب إلى أهلها ولم يفرّق بين أوليائها وأعدائها، يا سبحان الله أتكون طائفتين مختلفتين في دين واحد وكلّهم على الحق؟! كلا والله فماذا بعد الحق إلا الضلال) اهـ.



2) الإله:

إذا علمنا أن من أنواع التوحيد؛ توحيد الألوهية – بل ورد التوحيد مكان الشهادتين في حديث: (بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله...)، وفي رواية: (... على أن يوحّد الله) – لزمنا معرفة معنى الإله.

الإله؛ الله عز وجل، وكل ما اتّخذ من دونه معبودا؛ إله عند متّخذه، والإلهة والألوهية والألوهة؛ هي العبادة، والله أصله؛ إلاه، على فعال، بمعنى مفعول أي معبود.

---

[16] وهذا حال من يوقفون تنفيذ الشريعة على أمر الحكام وإذنهم أو تصويت البرلمان، وكذلك النسبة للدول والتجمعات التي تترك العمل بالتوحيد وتعمل بالكفر أو الشرك وتحتج باعذار واهية مثل خشية الطائفية أو الحرب الأهلية أو خشية المقاطعة الإقتصادية أو العزلة السياسية أو الدول الإقليمية أو العالمية أو خشية ذهاب الملك... الخ من الأعذار الباطلة المعاصرة التي يحتج بها لعدم تطبيق الشريعة وفرض التوحيد.

[17] شرح الطحاوية: ص228 – 229.

[18] شرح الطحاوية: ص234.

قال ابن رجب: (الإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالا ومحبّة وخوفا ورجاءً وتوكّلا عليه وسؤالا منه ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كلّه إلاّ لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقا في شيء من هذه الأمور، التي هي من خصائص الإلهية، كان ذلك قدحا في إخلاصه في قوله لا إله إلاّ الله، وكان فيه من عبودية المخلوق، بحسب ما فيه من ذلك) اهـ.

* * *

3) العبادة:

إذا علمنا أن الإله هو المعبود، لزم معرفة معنى العبادة.

العبادة لغة؛ التذلّل والخضوع والطاعة والدينونة، واصطلاحا؛ تختلف باعتبارات، باعتبار العبد؛ هي الذلّ والخضوع لله بالطاعة، وباعتبار المتعبّد به؛ هي اسم جامع لكل ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

ومن أخصّ ما يدخل في مسمّى العبادة ما يلي:

- الطاعة:

اعلم أنه لا يطاع لذاته إلاّ الله عز وجل، وما سواه - أيا كانت صفته وهيئته - فإنه يطاع لله، وأيما مخلوق يطاع لذاته؛ فهو مألوه معبود، والمطيع له على هذا الوجه هو عبد له، قال تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}، أي أطعتموهم في استحلال أكل الميتة، ونوع العبادة والتأليه للمخلوق هنا يكمن في طاعة المشركين في أخصّ خصّيصة من خصوصيات الله عز وجل، وهي خاصية التحليل والتحريم والتحسين والتقبيح.

قال ابن حزم في الاحكام: (العبادة إنما هي الإتّباع والانقياد، مأخوذة من العبودية، وإنما يعبد من ينقاد له ومن يتّبع أمره، وأما من يعصي ويخالف؛ فليس بعابد له، وهو كاذب في ادّعائه أنه يعبده)[19] اهـ.

ومما يوضّح ذلك أكثر قوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}.

[19] الاحكام: 93/1.

قال البغوي في التفسير: (فإن قيل؛ أنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان بمعنى الركوع والسجود، قلنا؛ معناه أنهم أطاعوهم في معصية الله واستحلّوا ما أحلّوا وحرّموا ما حرّموا، فاتّخذوهم كالأرباب، وفي حديث عدي بن حاتم قال صلى الله عليه وسلم: "فتلك عبادتهم"، فتأمل كيف جعل النبي صلى الله عليه وسلم طاعة الأحبار والرهبان في تحليل ما حرّم الله وتحريم ما أحلّ الله عبادة لهم واتّخاذهم أربابا من دون الله، ولو أمروهم أن يصلّوا ويصوموا لهم لما أطاعوهم، ولكن جاؤوهم من جهة الطاعة والانقياد، وهذا أمر تخفى فيه صفة العبودية على الكثير من الناس، فأطاعوهم وعبدوهم من دون الله من هذا الوجه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فمن جعل غير الرسول تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه، وإن خالف أمر الله ورسوله، فقد جعله ندا، وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح، فهذا من الشرك الذي يدخل صاحبه في قوله تعالى: {وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنَدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}) اهـ.

قال سيد قطب: (عندما يدعي عبد من العبيد أن له على الناس حق الطاعة لذاته، وأن له فيهم حق التشريع لذاته، وأن له كذلك حق إقامة القيم والموازين لذاته، فهذا هو ادعاء الألوهية، ولو لم يقل كما قال فرعون: {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى}، والإقرار به هو الشرك بالله أو الكفر به، وهو الفساد في الأرض أقبح الفساد... إن الذي يملك حق التحريم والتحليل هو الله وحده، وليس ذلك لأحد من البشر، لا فرد ولا طبقة ولا أمة ولا الناس أجمعين، إلا بسلطان من الله وفق شريعة الله...)[20] اهـ.

- التحاكم:

فإن كان العبد يتحاكم في جميع شؤون حياته الخاصة والعامة إلى شرع الله تعالى فهو عبد لله عز وجل، وإن كان يتحاكم إلى شرع غيره - أيا كان - ولو في جزئية من جزئيات حياته، فهو عبد لهذا الغير، وسرّ ذلك؛ أن الحكم والتشريع وسنّ القوانين والقيم والموازين يعتبر من أخصّ خصوصيات الإلهية - كما سبق في كلام سيد قطب رحمه الله - قال تعالى: {إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ}.

قال البغوي: (إن الحكم، ما القضاء والأمر والنهي إلاّ لله) اهـ.

وقال سيد قطب: (إن الحكم لا يكون إلا لله، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته، إذ الحاكمية من خصائص الألوهية، من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته، سواء ادعى هذا الحق فرد أو طبقة، أو حزب، أو هيئة، أو أمة، أو الناس

[20] طريق الدعوة في ظلال القرآن: 170/2.

جميعا في صورة منظمة عالمية، ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفرا بواحا، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة، حتى بحكم هذا النص وحده، وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعي من دائرة الدين القيم، وتجعله منازعا لله في أولى خصائص ألوهيته سبحانه فليس من الضروري أن يقول: ما علمت لكم من إله غيري، أو يقول: أنا ربكم الأعلى، كما قاله فرعون جهرة، ولكنه يدعي هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحي شريعة الله عن الحاكمية، ويستمد القوانين من مصدر آخر، وبمجرد أن يقرر أن الجهة التي تملك الحاكمية، أي التي تكون هي مصدر السلطات، جهة أخرى غير الله سبحانه، ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية...)[21] اهـ.

وفي قوله: {أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، قال: (حين نفهم معنى العبادة على هذا النحو – وهو الدينونة لله وحده، والخضوع له وحده، واتباع أمره وحده – نفهم لماذا جعل يوسف عليه السلام اختصاص الله بالعبادة تعليلا لاختصاصه بالحكم، فالعبادة – أي الدينونة – لا تقوم إذا كان الحكم لغيره).

فلا دين قيما سوى هذا الدين الذي يتحقّق فيه اختصاص الله بالحكم تحقيقا لاختصاصه بالعبادة.

ومن الأدلة كذلك قوله تعالى: {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}[22].

وقال الشنقيطي رحمه الله: (المعنى ولا يشرك الله جل وعلا أحدا في حكمه بل الحكم له وحده جل وعلا لا حكم لغيره البتة، فالحلال ما أحله تعالى والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، والقضاء ما قضاه، وحكمه جل وعلا المذكور في قوله: {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} شامل لكل ما يقضيه جل وعلا، ويدخل في ذلك التشريع دخولا أوليا) اهـ.

وقال رحمه الله في "الأضواء": (الإشراك بالله في حكمه والإشراك به في عبادته كلها بمعنى واحد، لا فرق بينهما البتة، فالذي يتّبع نظاما غير نظام الله وتشريعا غير تشريع الله ومن كان يعبد الصنم ويسجد للوثن، لا فرق بينهم البتة، فهما واحد، وكلاهما مشرك بالله).

وقال: (ويُفهم من هذه الآيات، كقوله تعالى: {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}، أن مبتغي أحكام المشرّعين غير ما شرعه الله إنهم مشركون بالله) اهـ.

---

[21] في ظلال القرآن: 1990/4

[22] وفي قراءة {ولا تشرك} أي الخطاب للمسلم ألا يشرك في حكم الله أحدا أي لا يتحاكم لغيره.

وكذا قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا}.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ: (فإن قوله عز وجل: {يَزْعُمُونَ}، تكذيب لهم فيما ادعوه من الإيمان، فإنه لا يجتمع التحاكم إلى غير ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم مع الإيمان في قلب عبد أصلا، بل الإيمان ينافي الآخر) اهـ.

قال الشنقيطي: (يتعجب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب... وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألسنة رسله صلى الله عليهم وسلم، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم؛ إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم)[23] اهـ.

- الحب والكره - الموالاة والمعاداة -:

فمن كانت موالاته ومعاداته وحبه وكرهه لله، بحيث يحب ما يحب الله ويكره ما يكرهه الله، ويوالي من يوالي الله ورسوله ويعادي من يعادي الله ورسوله، فهو عبد لله تعالى وحده، ومن كان مناط حبه وكرهه وموالاته ومعاداته غير الله فهو عبد لهذا الغير.

فقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم: (من أحب لله وابغض لله وأعطى لله ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان).

واعلم رحمك الله؛ أن الله تعالى لا يقبل العبادة بمعناها العام الشامل من عبده إلاّ إذا كانت كلها خالصة لوجهه الكريم، فإفراد الله تعالى بالإتباع والطاعة والتحاكم كل هذا داخل في إفراده بالعبادة الذي هو توحيد الألوهية، تماما كإفراده بالصلاة والدعاء والنسك، فلو أن رجلا أخلص العبادة لله تعالى في النسك والركوع والسجود وغيرها، لكنه أشرك معه آخر في الحب والإتباع والطاعة والتحاكم، فالشرك في واحدة من هذه الأمور كفيلة بان توبق صاحبها في جهنم[24].

- فائدة:

[23] أضواء البيان: 4/73 - 74.
[24] راجع كتاب "الطاغوت" لأبي بصير حليمة، و"الجامع" لعبد القادر بن عبد العزيز.

بعد أن عرفنا أن من أقسام التوحيد توحيد الألوهية، وعرفنا أن الإله هو المعبود؛ أي الألوهية هي العبودية، وعرفنا معنى العبادة وبعض لوازمها.

فاعلم – هداك الله وإيانا إلى سواء السبيل – "أن الكفار جحدوا توحيد الألوهية وقاتلهم الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا الجحود، وهم مقرّون بتوحيد الربوبية، لكنهم يفعلون الشركيات ويشرّعون القوانين ويذبحون لغير الله ويطيعون رؤساءهم، فاعتقادهم في الربوبية لم يدخلهم في الألوهية الذي دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالتوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة، ويسمّى توحيد الألوهية، ويسمى توحيد الله بأفعال العباد، لكن باعتبار إضافته إلى الله يسمّى توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلى العبد يسمّى توحيد العبادة، أو توحيد القصد أو توحيد الإخلاص"[25].

* * *

4) الطاغوت:

لغة: طغى يطغى طغْيا، ويطغو طغيانا؛ جاوز القَدْرَ وارتفعَ وغَلا في الكفر، وكل شيء جاوز القدر فقد طغى، قال تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى}، وقال: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ}.

أما اصطلاحا، فإليك أقوال أهل العلم:

قال عمر رضي الله عنه: (الطاغوت هو الشيطان).

وقال ابن كثير: (معنى قوله الطاغوت هو الشيطان؛ قوي جدا، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها)[26].

قال جابر رضي الله عنه: (الطواغيت كهان تنزل عليهم الشياطين).

قال مالك: (الطاغوت كل ما يعبد من دون الله عز وجل).

---

[25] شرح كشف الشبهات، لعلي الخضير: ص19.
[26] التفسير: 311/1.

قال ابن القيم: (الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها؛ رأيت أكثرهم عدلوا من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى طاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته)[27].

قال ابن جرير الطبري: (والصواب من القول عندي في "الطاغوت"؛ أنه كل ذي طغيان على الله، فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، إنسانا كان ذلك المعبود، أو شيطانا، أو وثنا، أو صنما، أو كائنا ما كان من شيء)[28].

قال ابن تيمية: (الطاغوت فعلوت من الطغيان، والطغيان: مجاوزة الحد، وهو الظلم والبغي، فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارها لذلك؛ طاغوت، ولهذا سمى النبي صلى الله عليه وسلم الأصنام طواغيت في الحديث الصحيح لما قال: "ويتبع من يعبد الطواغيت الطواغيت").

وقال: (والمطاع في معصية الله، والمطاع في اتباع غير الهدى ودين الحق، سواء كان مقبولا خبره المخالف لكتاب الله، أو مطاعا أمره المخالف لأمر الله؛ هو طاغوت، ولهذا سمى من تحوكم إليه من حاكم بغير كتاب الله؛ طاغوت، وسمى فرعون وعاداً طغاة)[29].

قال محمد بن عبد الوهاب: (الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله ورضي بالعبادة، من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله، فهو طاغوت، والطواغيت كثيرون، ورؤوسهم خمسة...)، ثم ذكر الشيطان، ومن عبد من دون الله وهو راض، ومن دعا إلى عبادة نفسه، ومن ادّعى علم الغيب، والحاكم الجائر المغير لما أنزل الله.

قال الشيخ سليمان بن سحمان النجدي: (الطاغوت ثلاثة أنواع: طاغوت حكم وطاغوت عبادة وطاغوت طاعة ومتابعة)[30].

فطاغوت الحكم ورد في قوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ}.

---

[27] أعلام الموقعين: 50/1.

[28] وفي وقتنا الحاضر آلهة تعبد من دون الله مثل القانون والأنظمة والحكام والهيئات الدولية وغيرها مما يخالف الشرع كلها آلهة تعبد من دون الله [شرح كشف الشبهات لعلي الخضير: ص24].

[29] الفتاوى: 200/28.

[30] الدرر السنية: 272/8.

قال ابن كثير: (والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامّة لمن عدل عن الكتاب والسنّة وتحاكم إلى ما سواها من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هنا)[31].

قال المودودي: (المراد من الطاغوت؛ كل فرد أو طائفة أو إدارة تبغي وتتمرد على الله، وتجاوز حدود العبودية وتدعي لنفسها الألوهية والربوبية).

وقال: (ومعنى الطاغوت في اصطلاح القرآن؛ كل دولة أو سلطة، وكل إمامة أو قيادة، تبغي على الله وتتمرد، ثم تنفذ حكمها في أرضه وتحمل عباده على طاعتها بالإكراه أو بالإغراء أو بالتعليم الفاسد)[32].

قال سيد قطب: (والطاغوت صيغة من الطغيان، تفيد كل ما يطغى على الوعي ويجور على الحق، ويتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد، ولا يكون له ضابط من العقيدة في الله، ومن الشريعة التي يسنها الله، ومنه كل منهج غير مستمد من الله، وكل تصور أو وضع أو أدب أو تقليد لا يستمد من الله، إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان الله، وكل حكم لا يقوم على شريعة الله، وكل عدوان يتجاوز الحق، والعدوان على سلطان الله وألوهيته، وحاكميته هو أشنع العدوان، وأشده طغيانا، وأدخله في معنى الطاغوت لفظا ومعنى... وأهل الكتاب لم يعبدوا الأحبار والرهبان، ولكن اتبعوا شرعهم فسماهم الله عبادا لهم، وسماهم مشركين؛ {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}، فهم عبدوا الطاغوت، أي السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها، وهم لم يعبدوها بمعنى السجود والركوع، ولكنهم عبدوها بمعنى الاتباع والطاعة، وهي عبادة تخرج صاحبها من عبادة الله ومن دين الله)[33].

قال محمد حامد الفقي: (والذي يستخلص من كلام السلف رضي الله عنهم؛ أن الطاغوت كل ما صرف العبد وصده عن عبادة الله وإخلاص الدين والطاعة لله ولرسوله، سواء في ذلك الشيطان من الجن والشيطان من الإنس والأشجار والأحجار وغيرها، ويدخل في ذلك بلا شك الحكم بالقوانين الأجنبية عن الإسلام وشرائعه وغيرها من كل ما وضعه الإنسان ليحكم به في الدماء والفروج والأموال، وليبطل بها شرائع الله من إقامة الحدود وتحريم الربا والزنا والخمر ونحو ذلك، مما أخذت هذه القوانين تحللها وتحميها بنفوذها ومنفذيها، والقوانين نفسها طواغيت، وواضعوها ومروجوها طواغيت، وأمثالها من كل كتاب وضعه العقل البشري ليصرف عن الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم إما قصدا أو عن غير قصد من واضعه، فهو طاغوت)[34].

---

[31] التفسير: 519/1.
[32] المصطلحات الأربعة في القرآن: 79.
[33] انظر الظلال: 292/1.
[34] حاشية كتاب فتح المجيد: ص282، ط دار الكتب العلمية.

وجاء في فتوى رقم (8008) من فتاوى "اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء": ردا على سؤال عن معنى الطاغوت في قوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ}، الجواب: (والمراد بالطاغوت في الآية؛ كل ما عدل عن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم إلى التحاكم إليه من قوانين وضعية أو تقاليد وعادات متوارثة أو رؤساء قبائل ليفصل بينهم بذلك أو بما يراه زعيم الجماعة أو الكاهن، ومن ذلك يتبين أن النظم التي وضعت ليتحاكم إليها، مضاهاة لتشريع الله؛ داخلة في معنى الطاغوت)[35].

طواغيت تعبد من دون الله:

بعد التعرف على معنى الطاغوت وصفة من يجري عليه مسمّى الطاغوت، نتعرّف على بعض الطواغيت مع شرح وجيز، على أن نرجئ الحديث عن الحاكم بغير ما أنزل الله في عنوان مستقل.

أ) المشرّع من دون الله:

يختلف المشرّع عن الحاكم المنفّذ، وهذا ما يسمّونه في هذه الأيام بـ "السلطة التشريعية"، التي تلزم السلطة التنفيذية بتنفيذ ما يصدر عنها من أحكام وتشريعات، وقد يكون المشرّع من دون الله شخصا أو هيئة أو حزبا أو مجلسا يضم مشرّعين.

وعلى العموم فإننا نقول: كل من جعل خاصية التشريع – التحليل والتحريم، التحسين والتقبيح[36] – لنفسه من دون الله وأخذ يشرّع للعباد ما يهواه ويراه؛ فهو طاغوت، يجب تكفيره والكفر به، وأيما مخلوق يعترف له بهذا الحق ويتحاكم إلى ما يصدر عنه؛ فقد أقر له بالإلهية واتّخذه معبودا وندا لله تعالى.

ب) التشريع ذاته:

التشريع المضاهي لشرع الله تعالى؛ طاغوت، وقد تقدم معنا في تعريف الطاغوت أن من أهل العلم من أدخل التشريعات المضاهية لشرع الله وغيرها في مسمّى الطاغوت.

ومما يدخل في هذا النوع؛ الدساتير الوضعية التي صاغتها عقول البشر لتحكم البلاد والعباد... ولشدّة رهبة القوم من الدستور؛ فإنهم يتصورون أن يخرجوا على كل شيء سوى

35 أنظر الجامع في طلب العلم الشريف: ص669، وللمزيد راجع الطاغوت، لأبي بصير.

36 هذا هو ما يعرف في القانون الوضعي بعبارة: "لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص" أي نص شريعتهم.

الدستور، فالدستور عندهم فوق التعقيب والنقد والاعتراض، والويل كل الويل لمن تسوّل له نفسه إهانة الدستور والتطاول عليه...

فإن قيل؛ الطاغوت هو الذي يعبد من دون الله فأين تكمن عبادة التشريع؟

أقول: من الواضح أن عبادته تكمن من جهة التحاكم إليه وطاعته والأخذ بنصوصه وأحكامه من غير تعقيب أو تقديم بشيء يدلّ على التعقيب والإعتراض، فأصبح بذلك مطاعا لذاته.

ج) المحبوب لذاته من دون الله عز وجل:

تقدم أن المحبوب لذاته من دون الله معبود من جهة عقد الولاء والبراء فيه وعليه، ومن كان كذلك فهو طاغوت... وقد تختلف أشكاله وصوره، فقد يكون حاكما أو شيخا أو زعيما أو وطنا أو قوما.

أ) الوطن والوطنية:

الوطن يكون طاغوتا ومعبودا من دون الله عندما يُعقد الولاء والبراء على أساس الانتماء إليه ولحدوده، وتقسيم الحقوق والواجبات على هذا الأساس، ومن صور ذلك؛ "الوحدة الوطنية" التي تُردد على ألسنة الطواغيت وكثير من الناس المخدوعين.

وفي فتاوى "اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء": (إن من لم يفرق بين اليهود والنصارى وسائر الكفرة وبين المسلمين إلا بالوطن، وجعل أحكامهم واحدة؛ فهو كافر).

هو كافر لكونه أشرك الوطن مع الله تعالى في الولاء والبراء، وجعل الاعتبار في ذلك هو الوطن وليس العقيدة والدين، وهذا مفاده رد وإبطال كثير من النصوص الشرعية التي تنصّ على وجوب عقد الولاء والبراء على العقيدة).

قال الشيخ أبو محمد المقدسي: (توحيد الوطنيين الوثنيين أو الوحدة الوطنية – الوثنية – التي تجمع بين الشيوعي والعلماني والديمقراطي والبعثي – ساب الرب والدّين والمستهزئ بدين الله – وتؤلف بينهم وتجمع صفوفهم في ظل أي مصلحة مزعومة أخرى، وهذا التوحيد هو توحيد الكفار أو توحيد الطواغيت أو توحيد المشركين أو توحيد كفار قريش الذي كانوا يدعون النبي صلى الله عليه وسلم إليه ويساومونه عليه من أجل مصلحة العشيرة والقبيلة ووحدتها ومن أجل مصلحة البلد أو المصلحة الوطنية، لكنه أبدا لن يكون توحيد المرسلين،

ومحال أن يكون، فتوحيد رب العالمين يفرّق بين أهل الحق وأهل الباطل، والوحدة الوطنية – الوثنية – تجمع وتؤاخي بينهم... ساء ما يحكمون)[37].

د) الشعب:

عندما يكون الشعب مصدر السلطات – بما في ذلك السلطة التشريعية – ويكون له الأمر والاختيار فيمن يحكم البلاد، والقانون الذي يطبق في الأرض، حتى ولو وقع اختياره على قانون الجاهلية، فالشعب في هذه الصورة؛ طاغوت ومعبود من دون الله.

يقول سيد قطب رحمه الله: (والأمة في النظام الإسلامي؛ هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله، ولكنها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعيته، إنما مصدر الحاكمية هو الله، وكثيرون – حتى من الباحثين المسلمين – يخلطون بين مزاولة السلطة وبين مصدر السلطة، فالناس بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية إنما يملكه الله وحده، والناس إنما يزاولون تطبيق ما شرعه الله بسلطانه، أما ما لم يشرعه الله فلا سلطان له ولا شرعية، وما أنزل الله به من سلطان).

ويقول رحمه الله: (فالناس ليسوا هم الحكم في الحق والباطل، وليس الذي يقرره الناس هو الحق، وليس الذي يقرره الناس هو الدّين[38]... إن نظرة الإسلام تقوم ابتداء على أساس أن فعل الناس لشيء وقولهم لشيء، وإقامة حياتهم على شيء لا تحيل هذا الشيء حقا إذا كان مخالفا للكتاب، ولا تجعله أصلا من أصول الدين، ولا تجعله التفسير الواقعي لهذا الدين، ولا تبرره لأن أجيالا متعاقبة قامت عليه... لا يكفي إذن أن يتخذ البشر لأنفسهم شرائع تشابه شريعة الله أو حتى شريعة الله نفسها بنصها إذا هم نسبوها لأنفسهم ووضعوا عليها شاراتهم ولم يردوها لله، ولم يطبقوها باسم الله إذعانا لسلطانه واعترافا بألوهيته وبتفرده بهذه الألوهية، التفرد الذي يحرر العباد من حق السلطان والحاكمية إلا تطبيقا لشريعة الله وتقريرا لسلطانه في الأرض) اهـ.

هـ) المجالس النيابية – مجلس الشعب –[39]:

---

[37] مقال الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد الوطنيين.

[38] فنحن حين نرفض مشروع العفو الشامل الذي يصادق عليه الشعب لم نخالف الدّين القيّم في شيء.

[39] برغم كل ما يقال عن سلطة الشعب فالواقع يقول أن الطواغيت لا يبالون بالشعب وإنما ذلك ضحك على الإنسان، انظر العمدة، فنحن نرى الطواغيت الذين يحكمون المسلمين بالشرائع الكفرية يدّعون أنهم يستندون في شرعية حكمهم على رأي الشورى وإنهم يحترمون الديمقراطية وهم يضعون البرلمانات والأغلبية بالتزوير والخداع وإذا أعياهم هذا لجأوا إلى البطش والتنكيل والأحكام العرفية.

من جرأة القوم على الله؛ أنهم خصصوا لأنفسهم ولشعوبهم مجالس تشريعية، وظيفتها التشريع وسن القوانين للناس من غير سلطان من الله... وكون هذه المجالس بأعضائها طاغوتا؛ فهو لعبادتها من جهة الإقرار لها بخاصية التشريع وطاعتها واتباعها في ذلك.

و) الديمقراطية:

هي دين له نظرته الخاصة عن الوجود والحياة والإنسان، وهو تكريس للعلمانية التي تقوم على مبدأ فصل الدين عن الدولة والحياة...

من إفرازات الديمقراطية؛ أن الشعب يحكم نفسه بنفسه، أي أن المشرع المطاع في نظر الديمقراطية هو الإنسان وليس الله، ومن غلو القوم في هذا الدين الجديد؛ أنهم يوالون ويعادون عليه، ويقاتلون ويسالمون عليه، فمن دخل فيه سالموه ووالوه، ومن أبى حاربوه وعادوه.

فالديمقراطية طاغوت، تفرز طواغيت تعبد من دون الله، ومع ذلك فالناس يدخلون فيها كدين[40]، ويحتكمون إليها، ويثنون عليها خيرا من غير أن يجدوا حرجا، وهذا الشر لم يسلم منه إلا من رحمه الله، وهم قليل.

الطواغيت التي ذكرناها لك؛ تعتبر عناوين عامة رئيسية يندرج تحتها جميع الطواغيت، وهي كذلك تعينك على معرفة بقية الطواغيت – الظاهرة منها والخفية – بالقياس عليها والمقارنة بها.

وقال الشيخ عبد الرحمن الدوسري: (حدثت ضروب من الشرك، برزت بأسماء وألقاب ينخدع بها الجهلة ويتعلق بها المغرضون والحاقدون... إن الذي تولى كبره هم اليهود والمجوس، لما خافوا من البعث الإسلامي الصحيح... وفي هذا الوقت كسبوا أنصارا من بني جلدتنا فألهبوا حماس الجهلة بنعرات العصبيات القومية في كل أمة إسلامية، فظهرت الوثنية الجديدة وعبادة المادة والشهوات وتقديس الأشخاص، بحجة الجنسية والوطنية، حتى تكونت في المحيط الإسلامي والعربي خاصة ردة جديدة بما انتحلوه من مبادئ وطنية ومذاهب مادية مزخرفة بألقاب ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب... وبمعرفة حقيقة التوحيد تعرف مدى ما انغمس فيه غالب المحسوبين على الإسلام من الوثنية الجديدة وما استجلبوه من مبادئ الغرب ومذاهبه المادية فجعلوا حدود الوطن فوق حدود الله وجعلوا لأنفسهم الخيرة فيما يشرعون وينظمون

---

[40] من عجائب القوم أنهم يتحرجون الدخول في الديانة اليهودية أو النصرانية، بينما لا يجدون حرجا في الدخول في دين الديمقراطية، أو دين الاشتراكية، أو دين الشيوعية والعلمانية، أو في دين غيرها من الأحزاب التي تقوم على مبادئ وأسس كفرية... علما أن هذا دين وهذا دين، وهذا باطل، والآخر أشد بطلانا وكفرا من الأول، لأن الأول له أصل سماوي والآخر أصله يستند إلى عقول الرجال وأهوائهم!

خلافا لما قضى الله ورسوله، واتبعوا ما يمليه رجال تألهوهم بالحب والتعظيم... وجلبوا موالاة أعداء الله بحجة الجنس والوطن، وتعطيل الشريعة بحجة التطوير الفاسد وعبادة كل طاغوت في سبيل ذلك، كقولهم: "الدين لله والوطن للجميع"، وكقولهم: "الدين علاقة بين العبد وربه فقط لا شأن له في الحياة"... ولا زال خريجو المدارس الاستعمارية يركزون هذه المفاهيم في طبقات الأمة الإسلامية... فعلى المسلمين – شيبا وشبانا وحكومات وشعوبا –؛ أن يقاوموا هذا الشرك الجديد والوثنية الجديدة)[41].

الكفر بالطاغوت شرط لصحة الإيمان:

الطاغوت؛ يؤمن به ويكفر به، قال تعالى: {يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}، والإيمان بالطاغوت يكون بصرف نوع من أنواع العبادة له والتحاكم إليه –كما أسلفنا –

إن أعظم ركن في الإسلام جاءت به الرسل هو الإيمان بالله تعالى وحده والكفر بالطاغوت، وهو أول ما دعوا إليه قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ}، ولا يصحّ إيمان عبد حتى يكفر بالطاغوت، وقال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

قال ابن كثير: (أي من خلع الأنداد والأوثان وما يدعوا إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله) اهـ.

ومفهوم الآية يقتضي؛ أن من آمن بالله ولم يكفر بالطاغوت أو كفر بالطاغوت ولم يؤمن بالله؛ لم يستمسك بالعروة الوثقى التي هي الإيمان أو الإسلام أو لا إله إلا الله – كما قال أهل العلم – كما تقتضي الآية؛ أن الإيمان بالله والإيمان بالطاغوت لا يمكن اجتماعهما في قلب واحد، فإن الإيمان بأحدهما يستلزم انتفاء الآخر.

وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله)[42].

قال محمد بن عبد الوهاب: (فقوله: وكفر بما يعبد من دون الله تأكيد للنفي، فلا يكون معصوم الدم والمال إلا بذلك، فلو شك أو تردد لم يعصم دمه وماله)[43].

[41] نقلا بتصرف من شرح كشف الشبهات لعلي الخضير: ص140.

[42] رواه مسلم.

وقال أبو محمد المقدسي: (وهذا الأمر أعظم عروة من عرى الإسلام، لا تقبل دعوة ولا جهاد ولا صلاة، ولا صيام ولا زكاة ولا حج إلا به، ولا يمكن النجاة من النار دون التمسك به، إذ هو العروة الوحيدة التي ضمن الله تعالى لنا ألا تنفصم، أما ما سواها من عُرى الدين وشرائعه فلا تكفي وحدها دون هذه العروة للنجاة، قال تعالى: {قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا}، تأمل كيف قدم الله الكفر بالطاغوت واجتنابه في الذكر على الإيمان به، والإنابة إليه سبحانه، تماما كما قدم النفي على الإثبات في كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وما ذلك إلا تنبيها على هذا الركن العظيم من هذه العروة الوثقى، فلا يصح الإيمان بالله ولا ينفع إلا بالكفر بالطاغوت أولا) اهـ

صفة الكفر بالطاغوت:

سبق وأن عرفنا؛ أن توحيد الألوهية هو شهادة أن لا إله إلاّ الله المشتملة على النفي والإثبات، والنفي معناه؛ نفي كل ما عبد من دون الله، وعرفنا؛ أنه لا يصح إيمان العبد إلا بالكفر بالطاغوت... ويحقق العبد هذا؛ باعتقاد بطلان عبادة غير الله ويترك هذه العبادة ويبغضها ويكفّر أهلها ويعاديهم، وهذا هو المراد بالكفر بالطاغوت.

إذن فالكفر بالطاغوت يكون:

- أولا؛ بتكفيرهم:

قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}، فلا بد من مخاطبتهم بصفة الكفر، وقال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}، فقوله: {بدا} يفيد غاية الظهور والوضوح، وتقديم العداوة التي مكانها الجوارح الظاهرة على البغضاء الذي مكانه القلب وتأمل تقديم البراءة من العابدين وشركهم قبل المعبودين، وما ذلك إلا للأهمية، فإن البراءة من العابد وشركه يقتضي البراءة من المعبودين دون العكس.

والكفر بالطاغوت، يكون باجتنابهم واعتزالهم وعدم مخالطتهم، قال تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمْ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِي}

---

[43] ومن قالها وهو مقيم على عبادة غير الله تعالى لا يبرأ من الشرك ولا يكفر به؛ لم تنفعه ولم تعصم دمه وماله، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (بني الإسلام على خمس، على أن يعبد الله ويكفر بما دونه)، وهذا تفسير على ما ورد في رواية: (على أن يوحّد الله)، ورواية: (شهادة أن لا إله إلا الله).

ويكون بجهادهم وقتالهم عند توفر الاستطاعة، قال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ}.

وقال صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) [44].

ومن لوازم الكفر بالطواغيت؛ انتفاء موالاتهم أو موادتهم، أو الركون إليهم، أو التحالف معهم.

قال أبو محمد المقدسي: (من لوازم التوحيد ومعالمه التي هي من أهم صفات ومميّزات أتباعه؛ حب الله تعالى وحب أوليائه الموحدين الذين يعبدونه وحده لا يشركون به شيئا، وموالاتهم ونصرتهم وتكثير سوادهم، وحب انتصارهم وظهورهم، ومن لوازم الكفر بالطاغوت؛ اجتناب الشرك والبراءة منه واجتناب أهله ومفارقتهم، وبغضهم ومعاداتهم، وجهادهم باللسان والسنان عند الإمكان، وإن كانوا من الأهل والعشيرة وأقرب الأقربين)[45].

تنبيه مهم:

بعد ذكر أقوال أهل العلم في حقيقة الطاغوت وبعض ما يدخل في مسماه شرعا وذكرنا فقه التعامل معه، يجدر بنا التنبيه على مسألة مهمة، وهي: أن الواجب الكفر بالطاغوت – كل طاغوت – أي كل ما عبد من دون الله بوجه من وجوه العبادة وهو راض بذلك – الحسية منها والمعنوية، الظاهرة والخفية، طواغيت الأشجار والأحجار والقبور وطواغيت الحكم والدستور –

أقول هذا، لأننا ابتلينا بطائفة من الناس تؤلف وتحاضر في طواغيت القبور، وتحجم – بل تدافع – عن الكلام في طواغيت الحكم والدستور، وتكفر تارك الصلاة في حين تتكلّف التأويلات لتارك الحكم بما أنزل الله.

واعلم – رحمك الله – أن "قضية توحيد الله في العبودية والكفر بالطاغوت، كانت الهمّ الأكبر، والغاية العظمى للأنبياء والرسل، لا يصرفهم عنها صارف، ولا يشغلهم عنها شاغل، ولم تكن تقبل عندهم المساومة، أو يرضوا فيها أنصاف الحلول، فإما استسلام وعبودية مطلقة

---

[44] البخاري ومسلم.

[45] الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد الوطنيين. للمزيد راجع الكفر بالطاغوت، لأبي بصير.

لله تعالى وحده، وهو الإيمان، أو عبودية للطاغوت – ولو في جانب من جوانب العبادة – فهو الكفر والشرك، والخروج من دائرة الدين الحق إلى دين الطاغوت"[46].

لذا كان لأجلها تُسل السيوف، وتبعث البعوث، وتجهز الجيوش، وعليها يعقد الولاء والبراء، ويعلن الحرب والسلم، وفي سبيلها تبذل المهج والأرواح، ويرخص كل غال ونفيس.

* * *

5) الدّين:

بعد أن ذكرنا معنى التوحيد والإله والطاغوت، فلكي يدرك المرء في أي ملّة هو، وعلى أي دين لا بد أن يعرف معنى كلمة الدّين.

جاء في "لسان العرب" معنى كلمة الدين: (الدَّيان؛ من أسماء الله عز وجل، معناه الحكَم القاضي، والدين؛ الجزاء، ويوم الدين؛ يوم الجزاء، والدين؛ الطاعة، والدين؛ العادة، والدين لله من هذا إنما هو طاعته والتعبد له، وفي التنزيل العزيز: {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ}، قال قتادة: "في قضاء الملك"، ودِنتُه؛ سُسْتُه، والدين؛ السلطان، وفي حديث الخوارج: "يمرقون من الدين مُروقَ السهم من الرميَّة"، قال الخطابي: "أراد بالدين الطاعة أي أنهم يخرجون من طاعة الإمام المفترض الطاعة) اهـ بتصرف.

قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ}.

قال ابن تيمية: (والدين هو الطاعة، فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله، وجب القتال حتى يكون كله لله)[47].

وقال ابن جرير في التفسير: (وحتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره).

قال المودودي رحمه الله: (المراد بـ "الدين" في جميع هذه الآيات هو القانون والحدود، والشرع والطريقة والنظام الفكري والعملي الذي يتقيد به الإنسان، فإن كانت السلطة التي يستند إليها المرء لاتباعه قانونا من القوانين، أو نظاما من النظم سلطة الله تعالى؛ فالمرء لا

[46] الطاغوت، لأبي بصير.
[47] الفتاوى: 544/28.

شك في دين الله عز وجل، وأما إن كانت تلك السلطة سلطة ملك من الملوك؛ فالمرء في دين الملك)[48].

قال الشنقيطي في "الأضواء": (الدّين هو ما شرعه الله، فكل تشريع من غيره باطل، والعمل به بدل تشريع الله عند من يعتقد أنه مثله أو خير منه كفر بواح لا نزاع فيه)[49].

وفي قوله تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ}، قال سيد قطب رحمه الله: (وبملاحظة جميع ما ورد في القرآن من تفاصيل لقصة موسى عليه السلام وفرعون، لا يبقى من شك في أن كلمة "الدين" لم ترد في تلك الآيات بمعنى النحلة والديانة فحسب، أريد بها الدولة ونظام المدينة أيضا، فكان مما يخشاه فرعون ويعلنه: أنه إن نجح موسى عليه السلام في دعوته، فإن الدولة ستزول وإن نظام الحياة القائم على حاكمية الفراعنة والقوانين والتقاليد الرائجة سيقتلع من أصله).

وقال: (والتحليل والتحريم - أي الحظر والإباحة - هو الشريعة، هو الدين، فإذا كان الذي يحلل هو الله، فالناس إذن في دين الله، وإن كان الذي يحرم أو يحلل أحد غير الله، فالناس إذن يدينون لهذا الأحد، وهم إذن في دينه لا في دين الله، والمسألة على هذا الوضع هي مسألة الألوهية وخصائصها، وهي مسألة الدين ومفهومه، وهي مسألة الإيمان وحدوده، فلينظر المسلمون في أنحاء الأرض أين هم من هذا الأمر؟ أين هم من هذا الدين؟ وأين هم من الإسلام وإن كانوا ما يزالون يصرون على ادعائهم للإسلام!)[50].

- فائدة:

إن كل الغبش والغموض والتميّع الذي طال المفاهيم - التي سلف ذكرها -؛ يتحمّل مسؤوليته بالدرجة الأولى العلماء والحكام، فالفساد يدخل العالم من ثلاث فرق، كما قال ابن المبارك رحمه الله:

وهل أفسد الدّين إلاّ الملوك وأحبار سوء ورهبانها

- فالملوك الجائرة؛ يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة ويعارضونها بها ويقدّمونها على حكم الله ورسوله.

---

48 الكتاب القيم المصطلحات الأربعة في القرآن: ص125.

49 أضواء البيان: 162/7.

50 طريق الدعوة في ظلال القرآن: 170/2 و 179.

- وأحبار السوء؛ وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بأرائهم وأقيستهم الفاسدة المتضمّنة تحليل ما حرّم الله ورسوله وتحريم ما أباحه، واعتبار ما ألغاه وإلغاء ما اعتبره، ونحو ذلك.

- والرهبان؛ وهم جهال المتصوفة المعترضون على حقائق الإيمان والشرع بالذواق والمواجيذ... المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله وإبطال دينه الذي شرعه على لسان نبيه[51].

[51] بتصرف من شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز.

الفصل الثاني
حكم الحاكم بغير ما أنزل الله

توطئة مهمة:

حين نتكلم عن كفر الحاكم بغير ما أنزل الله نُنبز بوصف الإرهاب والتطرّف والتكفير بذلك.

اعلم وفقنا الله وإياك إلى العلم النافع والعمل به؛ أن موضوع التكفير كحكم شرعي من أحكام الدّين، مع أهميته وضرورته وتعلق كثير من المسائل والأحكام به، هو موضوع خطير بالغ الخطورة، تترتب عليه أثاره الكثيرة في الدنيا والآخرة، وقد قصّر في معرفته أقوام فزلّت فيه أقدام وضلّت فيه أفهام.

قال شيخ الإسلام: (اعلم أن مسائل التكفير والتفسيق هي من مسائل الأسماء والأحكام التي يتعلق بها الوعد والوعيد في الدنيا والآخرة، وتتعلق بها الموالاة والمعاداة والقتل والعصمة وغير ذلك في الدار الآخرة)[52].

وقال أيضا: (فإن الخطأ في اسم الإيمان؛ ليس كالخطأ في اسم محدث، ولا كالخطأ في غيره من الأسماء، إذ كانت أحكام الدنيا والآخرة متعلقة باسم الإيمان والإسلام والكفر والنفاق)[53].

ونقل القاضي عياض عن أبي المعالي قوله: (أن إدخال كافر في الملة وإخراج مسلم؛ عظيم في الدّين).

والمتابع لموضوع التكفير في كتب الفقه – على سبيل المثال – يرى بوضوح تعلق كثير من المسائل والأحكام به، ويعرف أهمية الموضوع وخطورته حقا، خدّ – مثلا – في أحوال الحكام وما يتعلق بهم – وهو موضوعنا –:

حيث تجب موالاة الحاكم المسلم ونصرته وطاعته، ولا يجوز الخروج عليه ما لم يظهر كفرا بواحا... أما الحاكم الكافر؛ فلا تجوز بيعته ولا تحل نصرته ولا موالاته ولا يحل القتال

[52] مجموع الفتاوى: 251/12.
[53] مجموع الفتاوى: 246/7.

تحت رايته ولا الصلاة خلفه ولا التحاكم إليه ولا تصحّ ولايته على مسلم، بل يجب منازعته والسعي في خلعه وإقامة الحاكم المسلم مكانه، ويتفرع من ذلك؛ كفر من تولاّه أو نصر كفره.

وفي أحكام الولاية؛ لا تصح ولاية الكافر على المسلم، فلا يصح أن يكون الكافر واليا أو قاضيا للمسلمين.

وفي أحكام القتال؛ يفرّق بين قتال الكفار والمشركين والمرتدين وبين قتال المسلمين من البغاة والعصاة.

وفي أحكام الولاء والبراء؛ تجب موالاة المسلم وتحرم موالاة الكافر أو نصرته على المسلمين، بل تجب البراءة منه وبغضه.

ولك أن تتأمل ما يترتب من مفاسد ومحاذير ومنكرات بسبب خلط أحكام المسلمين بأحكام الكفار فيما تقدم من الأمثلة.

"لا يُستغرب من عبيد القوانين حين يسوون بين المسلم والكافر، ولذلك ألغوا من دساتيرهم أي أثر للدين في التفريق والتمييز بين الناس... وإنما المستغرب الذي يثير العجب؛ أن يقع في شيء من ذلك كثير من المنتسبين إلى الدعوة والدّين، فيموت عندهم التمييز بين المسلمين والكفار، وذلك بإهمالهم لأحكام التكفير وإعراضهم عن تعلّمها وعن النظر في أحكام الواقع الذي يعيشون فيه وحكم الحكام المتسلطين فيه وحكم أنصارهم وأوليائهم"[54].

فما فتئ كثير منهم – بسبب ذلك – أن صاروا للطواغيت جندا محضرين وأذنابا مخلصين، وما المانع؟ فهؤلاء الحكام عندهم مسلمون! وفي المقابل شنوا الغارة على كل موحد وداعية ومجاهد وقف في وجه أولئك الطواغيت... هكذا وبهذا التأصيل المنحرف عن جادة السلف... وبهذا الأخذ المشوه لنصوص الشريعة في غياهب ظلمات العماية في واقع هذه الحكومات، وباستخفافهم وإعراضهم عن تعلم أحكام التكفير؛ والوا الطواغيت والمشركين وعادوا المؤمنين والموحدين، وتركوا أهل الأوثان وأغاروا على أهل الإسلام، إذ أن فساد فَهْم الأصول – إضافةً إلى جهل مدقع في الواقع – يوجب فساد تطبيقها في الفروع، ويثمر ضلالاً عن الجادة والمنهاج[55].

[54] وقد بين ابن القيم؛ أن المفتي لا يتمكن من الفتوى إلا بنوعين من الفهم، فهم الواقع وفهم الواجب فيه وهو حكم الله الذي حكم به انظر أعلام الموقعين: 187/1، لكن ضعف العلم ثغرة للشبهات وضعف الإخلاص ثغرة للشهوات والاستسلام للشبهات والشهوات مطية الهوى ومركب الضلال، الثلاثينية: ص98.

[55] ومن هذا تدرك السر في تقديم حقيقة تلك المفاهيم التي ذكرنا.

إن معرفة كفر الحاكم؛ مدعاة إلى العمل الجاد والإعداد الذي يُمكن في يوم من الأيام من تغييره... بخلاف من كان الحاكم عنده مسلماً، فإنه لن يرفع بذلك رأساً –كما هو واقع مرجئة العصر في هذا الزمان –

فاختلاف الحكم على الحاكم عند كل فريق؛ هو الفرقان والميزان الذي يزن سلوك كل فريق ويميز توجهه وصبغته، ما بين موحد كافر بالطاغوت معادٍ له، أو مجتنب على أقل الأحوال... وما بين مبايع له مناصر، أو مجادل عن باطله مهون من كفرياته[56].

بيان كفر الحاكم بغير ما أنزل الله:

قال أبو بصير: (نحن إذ نتكلم – في بحثنا هذا – عن طغيان الحاكم الذي يحكم بغير ما أنزل الله، وعن حكم الشرع فيه، لا نقصد منه صورة ذاك الحاكم الطيب الذي يحب شرع الله، ولا يرضى عنه بديلا، ويسعى إلى تطبيقه – قدر طاقته – في جميع مجالات الحياة، لكنه في واقعة – وقل وقائع – تخونه نفسه، فيحكم فيها بغير ما أنزل الله لضعف في نفسه أو هوى، مع اعترافه بالتقصير وشعوره بالإثم فهؤلاء – ومن كان على صورتهم – لا نقول إلا بإسلامهم وعليهم وعلى أمثالهم نحمل مقولة ابن عباس رضي الله عنه وغيره من أهل العلم: إنه كفر دون كفر، وليس بالكفر الذي ينقل عن الملة، فنحن لا نريد هذه الصورة الشبه غائبة عن الساحة ومنذ زمن بعيد.

وإنما نريد حالة أخرى، نريد تلك الصورة السائدة في كثير من أمصار المسلمين... نريد ذاك الحاكم الذي غير وبدل، وقدم شرع الطاغوت على شرع الله، واستحسنه وحسنه في أعين الناس...نريد ذاك الحاكم الذي يحارب ويعادي شرع الله، والدعاة إلى تطبيق شرع الله في الأرض... نريد ذاك الحاكم الذي يحمي – بالمال والرجال والسلاح – قوانين الكفر، ويقاتل الأمة دونها... نريد ذاك الحاكم الذي يحتاج إلى ثورة عارمة مسلحة حتى ينصاع إلى أمر أو حكم واحد من أحكام الله!

فهذه الصورة الخبيثة الجاثمة على صدر الأمة ومقدراتها نريد، وهذا الحاكم الطاغي – بصفاته الآنفة الذكر – نريد، وفيه نقول: قد اجتمعت أدلة الكتاب والسنة، وجميع أقوال علماء الأمة المعتبرين – بما لا يدع مجالا للشك والتوقف أو التردد – على كفره كفرا بواحا ظاهرا، لا يتوقف في تكفيره إلا كل مرجف مغفل، أو جاهل أعمى البصر والبصيرة"[57].

[56] انظر الرسالة الثلاثينية في التحذيرمن الغلو في التكفير: 16 – 21، 86 - 87.
[57] الطاغوت بتصرف يسير.

فأصل المسألة؛ قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ}، وقال: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُون}، وقال: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ}، ومعرفة سبب نزولها يعيننا على فهمها، فإنها آية في جملة آيات تتكلم على الكفار من أهل الكتاب.

ولذلك قال البراء بن عازب رضي الله عنه: (في الكفار كلها)، أي أنها تتناول الكفر الأكبر الناقل عن الملة.

وذلك في صحيح مسلم في قصة رجم اليهودي: (مُرَّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بيهودي مُحَمَّمٍ مجلود، فدعاهم فقال: "هكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟ "، فقالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: "أنْشُدَك بالذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟ "، فقال: لا والله، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أوّل من أحيا أمرك إذ أماتوه")، قال: (فأمر به فرجم).

فها هنا شرعوا وتواطؤوا واجتمعوا على شرع وحكم غير ما أنزل الله، وتحاكموا إلى الطاغوت؛ فكفروا، ولو كان ذلك في قضية أو حدّ واحد، فهذا هو سبب النزول ومناط الآية المكفر، الذي لا يذكر معه الاستحلال أو الجحود، اللهم إلا على سبيل الزيادة في الكفر، لا على سبيل التقييد أو الاشتراط للتكفير، والصواب؛ أن يبقى الكفر في الآية على ظاهره – أي الأكبر – وحقيقته ولا يؤول إلى الأصغر، ما دام الاستدلال بها على مناطها – سبب نزولها ونظائره –[58].

قال الشيخ عبد القادر بن عبد العزيز عن الآية السابقة الذكر: (وبينت أنه نص عام من أوجه كثيرة، وأن الكفر في الآية هو الكفر الأكبر، وأنه إذا اختلفت أقوال الصحابة في تفسير آية؛ اخترنا من أقوالهم ما يؤيده الكتاب والسنة – كما هو مقرر في الأصول – وبينت كذلك؛ أن ما يحدث في كثير من بلدان المسلمين الآن هو نفس صورة سبب نزول الآية، وهو تعطيل حكم الشريعة الإلهية واختراع حكم جديد وجعله تشريعا مُلزِما للناس، كما عطل اليهود حكم التوارة برجم الزاني واخترعوا تشريعا بديلا، وذكرت في رسالتي المشار إليها؛ أن صورة سبب النزول قطعية الدخول في النص، كما هو مقرر في الأصول، وهو ما أشار إليه إسماعيل القاضي – كما نقل ابن حجر –: "قال إسماعيل القاضي في "أحكام القرآن" –

[58] الثلاثينية الخطأ رقم15 بتصرف.

بعد أن حكي الخلاف في ذلك -: ظاهر الآيات يدل علي أن من فعل مثل ما فعلوا واخترع حكما يخالف به حكم الله وجعله دينا يُعمَلُ به، فقد لَزِمَه مثل ما لزمهم من الوعيد المذكور، حاكما كان أو غيره")[59].

وقال الدكتور أيمن الظواهري: (قوله: "وجعله دينا يعمل به"، أي جعله نظاما ملزما للناس، فالدين في أحد معانيه يطلق على نظام حياة الناس، حقا كان أو باطلا، لأن الله سمّى ما عليه الكفار من الضلال دينا، فقال: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ})[60].

"فكل من شارك في وضع القوانين الوضعية أو حَكَم بها؛ فهو كافر، كفرا أكبرَ، مخرجا من ملة الإسلام، وإن أتى بأركان الإسلام الخمسة وغيرها، وهذا هو ما قرره كثير من أهل العلم"[61].

<u>وإليك الآن بعض أقوال أهل العلم في مسألتنا:</u>

- قال ابن كثير في تفسير قوله الله تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}: (ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر وعَدَلَ إلى ماسواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من الشريعة، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكز خان الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير) اهـ.

وقال أيضا: (فمن ترك الشرع المحكم المنزّل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدَّمها عليه؟ من فعل ذلك كَفَر بإجماع المسلمين)[62].

- قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله - معلقا على كلام ابن كثير -: (أفيجوز مع هذا في شرع الله أن يُحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربا الوثنية الملحدة؟

[59] فتح الباري: 120/13.
[60] الحوار مع الطواغيت مقبرة الدعاة: ص2.
[61] العمدة في إعداد العدة: ص309.
[62] البداية والنهاية: 128/13.

بل تشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة، يغيرونه ويبدلونه كما يشاءون، لا يبالي واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها؟...)، إلى قوله: (إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس. هي كفر بواح، لا خفاء فيه ولا مداورة، ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام – كائنا من كان – في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها)[63].

– يقول محمد حامد الفقي – معلقا أيضا على كلام ابن كثير: (ومثل هذا وشر منه من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله، ولا ينفعه أي اسم تسمى به ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام ونحوها)[64].

– قال شيخ الإسلام ابن تيمية وهو يتكلم عن أصناف الناس بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم: (صنف رابع شر من هؤلاء وهم قوم ارتدوا عن شرائع الإسلام وبقوا مستمسكين بالانتساب إليه، فهؤلاء الكفار المرتدون عن الإسلام والداخلون فيه من غير التزام لشرائعه، والمرتدون عن شرائعه لا عن سمته؛ كلهم يجب قتالهم بإجماع المسلمين حتى يلتزموا شرائع الإسلام، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدّين كله لله)[65].

وقال: (فكل من امتنع من أهل الشوكة عن الدخول في طاعة الله ورسوله؛ فقد حارب الله ورسوله، ومن عمل في الأرض بغير كتاب الله وسنة رسوله فقد سعى في الأرض فسادا، وقد قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}، فكل من خرج عن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وشريعته فقد أقسم الله بنفسه المقدسة أنه لا يؤمن حتى يرضى بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم)[66].

وقال: (ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين؛ أن من سوغ اتباع غير دين الإسلام، أو اتباع شريعة غير شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فهو كافر وهو ككفر من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض الكتاب).

وقال: (ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله؛ فهو كافر، فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلا من غير اتباع لما أنزل الله؛ فهو كافر).

---

[63] عمدة التفسير: 173/4.
[64] فتح المجيد، هامش: ص396.
[65] مجموع الفتاوى: 416/28.
[66] مجموع الفتاوى: 470/28.

– قال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ: (إن من الكفر الأكبر المستبين؛ تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليكون من المنذرين، بلسان عربي مبين)[67].

وقال رحمه الله: (الحاكم بغير ما أنزل اللهُ ؛كافرٌ، إمّا كفرُ اعتقادٍ ناقلٌ عن الملّة، وإمّا كفرُ عملٍ لا ينقلُ عن الملّة، أمّا الأول: وهو كفر الاعتقاد فهو أنواع، أحدها: أن يجحد الحاكمُ بغير ما أنزل الله أحقيّة حُكمِ الله ورسوله، وهذا ما لا نزاع فيه بين أهل العلم، فإنّه كافرًا الكفرَ الناقل عن الملّة، الثاني: أنْ لا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كونَ حُكم اللهِ ورسولِهِ حقًّا، لكن اعتقد أنّ حُكم غير الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن من حُكمه، وأتمّ وأشمل... لا ريب أنه كافرٌ، الثالث: أنْ لا يعتقد كونَه أحسن من حُكم الله ورسوله، لكن اعتقد أنه مثله، فهذا كالنوعين الذين قبله، في كونه كافرًا الكفرَ الناقل عن الملّة، الرابع: أنْ لا يعتقد كون حُكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلاً لحكم الله ورسوله، فضلاً عن أنْ يعتقدَ كونه أحسن منه، لكن اعتقد جواز الحُكم بما يخالف حُكم الله ورسوله، فهذا كالذي قبله، الخامس: وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقّة لله ورسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية، إعدادا وإمدادا وإرصادا وتأصيلا، وتفريعا وتشكيلا وتنويعا وحكما وإلزاما، ومراجع ومستندات، فكما أنّ للمحاكم الشرعية مراجعَ مستمدّات، مرجعها كلُّها إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فلهذه المحاكم مراجعٌ، هي: القانون الملفّق من شرائعَ شتى، وقوانين كثيرة، كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة وغير ذلك فهذه المحاكم في كثير من أمصار الإسلام مهيّأة مكملة، مفتوحةُ الأبواب، والناس إليها أسرابٌ إثْر أسراب، يحكُمُ حُكّامُها بينهم بما يخالف حُكم السُنّة والكتاب، من أحكام ذلك القانون، وتُلزمهم به، وتُقِرُّهم عليه، وتُحتِّمُه عليهم... فأيُّ كُفر فوق هذا الكفر، وأيُّ مناقضة للشهادة بأنّ محمدًا رسولُ اللهِ بعد هذه المناقضة[68]، السادس: ما يحكُم به كثيرٌ من رؤساء العشائر، والقبائل من البوادي ونحوهم، من حكايات آبائهم وأجدادهم، وعاداتهم التي يسمُّونها "سلومهم"، يتوارثون ذلك منهم، ويحكمون به ويحُضُّون على التحاكم إليه عند النزاع، بقاءً على أحكام الجاهلية، وإعراضًا ورغبةً عن حُكم الله ورسوله) اهـ.

وقال: (فكل من تحاكم إلى غير ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد آمن بالطاغوت الإيمان الموجب لكفره)[69].

---

[67] رسالة تحكيم القوانين.

[68] رحمه الله وصف بلاد المسلمين الآن وصفا دقيقا.

[69] رسالة تحكيم القوانين.

– قال الشنقيطي: (ومن هدي القرآن للتي هي أقوم؛ بيانه أن كل من اتبع تشريعا غير التشريع الذي جاء به سيد ولد آدم محمد ابن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، فاتباعه لذلك التشريع المخالف؛ كفرٌ بواحٌ مخرجٌ من الملة الإسلامية)[70].

وقال: (وأما النظام الشرعي المخالف لتشريع خالق السموات والأرض؛ فتحكيمه كفر بخالق السموات والأرض، كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصاف، وأنهما يلزم استواؤهما في الميراث، وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوهما أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان، ونحو ذلك، فتحكيم هذا النوع من النظام في أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم: كفر بخالق السموات والأرض، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه من خلق الخلائق كلها وهو أعلم بمصالحها سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مشرع آخر علوا كبيرا).

وقد سبق قوله: (أنه لا يشك في كفرهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم)[71].

– قال الشيخ محمود شاكر: (وإذن، فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا، من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام بالاحتكام إلى حكم غير الله في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم؛ فهذا الفعل إعراض عن حكم الله ورغبة عن دينه وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه)[72].

– قال عبد العزيز بن باز: (لا إيمان لمن اعتقد أن أحكام الناس وأراءهم خير من حكم الله ورسوله أو تماثلها أو تشابهها، أو تركها وأحلّ محلّها الأحكام الوضعية والأنظمة البشرية وإن كان معتقدا أن أحكام الله خير وأكمل وأعدل).

وقال: (فمن خضع لله سبحانه وأطاعه وتحاكم إلى وحيه فهو العابد له ومن خضع لغيره وتحاكم إلى غير شرعه فقد عبد الطاغوت وانقاد له، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ}، والعبودية لله وحده والبراءة من عبادة الطاغوت والتحاكم إليه من مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله).

[70] أضواء البيان: 439/3.
[71] الأضواء: 83/4.
[72] عمدة التفسير: 157/4.

وقال: (عن الذين يدعون إلى الإشتراكية أو الشيوعية أو غيرها من المذاهب الهدامة المناقضة لحكم الإسلام؛ كفار ضلاّل، أكفر من اليهود والنصارى، لأنهم ملاحدة لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يجوز أن يجعل أحد منهم خطيبا وإماما في مسجد من مساجد المسلمين ولا تصح الصلاة خلفهم، وكل من ساعدهم على ضلالهم وحسّن ما يدعون إليه وذمّ دعاة الإسلام ولمزهم؛ فهو كافر ضال، حكمه حكم الطائفة الملحدة التي سار في ركابها وأيّدها في طلبها، وقد أجمع علماء الإسلام على أن من ظاهر الكفار على المسلمين وساعدهم عليهم بأي نوع من المساعدة؛ فهو كافر مثلهم، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ})[73].

وردا عن سؤال: متى نُفرد شخصاً باسمه وعينه على أنه طاغوت، فجاء في الجواب: (إذا دعا إلى الشرك أو لعبادة نفسه أو ادعى شيئا من علم الغيب أو حَكَم بغير ما أنزل الله متعمداً ونحو ذلك)[74].

وقال في "نقد القومية العربية": (وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله؛ فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة، بنص هذه الآيات المحكمات، يجب على أهل الإسلام بغضها ومعاداتها في الله، وتحرم مودّتها وموالاتها حتى تؤمن بالله وحده وتحكم شريعته)[75].

ونظرا لعموم البلوى في هذا الزمان بتولي الكفار، أنقل لك أخي ما يلي:

- قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمهم الله - بعد كلام له عن وجوب معاداة الكفار والبراءة منهم -: (فكيف بمن أعانهم، أو جرهم على بلاد أهل الإسلام، أو أثنى عليهم، أو فضلهم بالعدل على أهل الإسلام، واختار ديارهم ومساكنتهم وولايتهم وأحب ظهورهم، فإن هذا ردة صريحة بالاتفاق، قال الله تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإيمان فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوفِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ})[76].

- قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (الناقض الثاني مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}).

[73] مجموع فتاوى ومقالات متنوعة للشيخ ابن باز، نقلا عن الجامع في طلب العلم الشريف: ص692.
[74] فتوى رقم 5966 من فتاوى اللجنة الدائمة للافتاء، نقلا عن الجامع: ص670.
[75] نقد القومية العربية: ص51/50.
[76] الدرر: 326/8.

- وقال ابن باز في مجموع فتاويه[77]: (وكل من ساعدهم على ضلالهم وحسّن ما يدعون إليه، وذمّ دعاة الإسلام ولمزهم؛ فهو كافر ضال، حكمه حكم الطائفة التي سار في ركابها وأيدها في طلبها، وقد أجمع علماء الإسلام على أن من ظاهر الكفار على المسلمين، وساعدهم بأي نوعٍ من المساعدة؛ فهو كافر مثلهم).

- في سنة 661: قام صاحب الكرك - الملك المغيث عمر بن العادل - بمكاتبة هولاكو والتتار على أن يأخذ لهم مصر، فاستفتى الظاهر بيبرس الفقهاء؛ فأفتوا بعزله وقتله، فعزله وقتله[78].

- وفي "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"[79] وفي كتاب "القضاء" من "نوازل" الإمام البرزلي رحمه الله: أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني رحمه الله استفتى علماء زمانه - وهم من المالكية - في استنصار ابن عباد الأندلسي - حاكم أشبيلية - بالكتابة إلى الإفرنج على أن يعينوه على المسلمين، فأجابه جلهم بردته وكفره، وهذا في حدود عام 480 تقريباً...

- وتكرّرت نحو هذه الحادثة عام 984 من محمد بن عبد الله السعدي - حاكم مراكش - الذي استعان بملك البرتغال ضد عمه أبي مروان المعتصم بالله، فأفتى علماء المالكية بكفره وردته[80].

- في حدود سنة 700: هجم التتار على أراضي الإسلام في الشام وغيرها، وقد أعانهم بعض المنتسبين للإسلام، فأفتى شيخ الإسلام ابن تيمية بردة من أعانهم[81].

قالت وزارة الخارجية الأمريكية في تقريرها السنوي حول الإرهاب: (إن الرئيس بوتفليقة الذي قابل الرئيس بوش عام2001م تعهّد بصورة علنية بالتعاون الكامل لحكومته مع التحالف الدولي ضد الإرهاب، وكجزء من هذا التعاون عزّزت الحكومة الجزائرية المشاركة في المعلومات مع الولايات المتحدة الأمريكية وعملت بنشاط مع حكومات أوروبية وأخرى للقضاء على شبكات دعم الإرهابيين المرتبطة بمجموعات جزائرية تعمل بعضها في أوروبا).

---

[77] 4/1.
[78] البداية والنهاية: 238/13.
[79] 75/2.
[80] كما في الاستقصا: 70/2.
[81] الفتاوى: 530/28

وبعد هذا كله، فالأمر كما قال الالوسي: (فلا ينبغي التوقف في تكفير من يستحسن ما هو بيّن المخالفة للشرع منها ويقدّمه على الأحكام الشرعية منتقصا لها)[82].

– قال ابن عبد الوهاب: (نكفر من أشرك بالله في إلهيته بعدما نبين له الحجة على بطلان الشرك، وكذلك نكفر من حسّنه للناس أو أقام الشبه الباطلة على إباحته، وكذلك من قام بسيفه دون هذه المشاهد – أي القبور – التي يشرك بالله عندها وقاتل من أنكرها وسعى في إزالتها، ونكفّر من أقرّ بدين الله ورسوله ثم عاداه وصدّ الناس عنه).

وقال أيضا: (الطواغيت كثيرة، ورؤوسهم؛ خمسة) – ذكر منهم الحاكم بغير ما أنزل الله – اهـ.

– قال ابن قاسم: (كمن يحكم القوانين الجاهلية والقوانين الدولية، بل جميع من حكم بغير ما أنزل الله – سواء كان بالقوانين الوضعية أو بشيء مخترع وهو ليس من الشرع – ... فهو طاغوت من أكبر الطواغيت).

– قال سيد قطب: (إما أن يكون الحكّام قائمين على شريعة الله كاملة؛ فهم في نطاق الإيمان، وإما أن يكونوا قائمين على شريعة أخرى مما لم يأذن به الله؛ فهم الكافرون الظالمون الفاسقون، وأن الناس إما أن يقبلوا من الحكام والقضاة حكم الله وقضاءه في أمورهم فهم مؤمنون، وإلا فما هم بالمؤمنين، ولا وسط بين هذا الطريق وذاك، ولا حجة ولا معذرة، ولا احتجاج بمصلحة، فالله رب الناس يعلم ما يصلح للناس، ويضع شرائعه لتحقيق مصالح الناس الحقيقية، وليس أحسن من حكمه وشريعته حكم أو شريعة، وليس لأحد من عباده أن يقول: إنني أرفض شريعة الله، أو إنني أَبصر بمصلحة الخلق من الله، فإن قالها – بلسانه أو بفعله – فقد خرج من نطاق الإيمان... فما يمكن أن يجتمع الإيمان وعدم تحكيم شريعة الله أو عدم الرضى بحكم هذه الشريعة، فمن شاء أن يقول؛ إن البشرية في طور من أطوارها لا تجد في هذا الكتاب حاجتها، فليقل، ولكن ليقل معه؛ إنه – والعياذ بالله – كافر بهذا الدّين مكذب بقول رب العالمين، هكذا تتبين القضية... إله واحد ومالك واحد إذن فحاكم واحد ومشرّع واحد ومتصرف واحد وإذن الشريعة واحدة ومنهج واحد وقانون واحد إذن فطاعة واتباع وحكم بما أنزل الله فهو إيمان وإسلام أو معصية وحكم بغير ما أنزل الله فهو كفر وظلم وفسوق، ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحّي شريعة الله عن حكم الحياة ويستبدل بها شريعة الجاهلية وحكم الجاهلية ويجعل هواه وهوى شعب من الشعوب أو هوى جيل من أجيال البشر فوق حكم الله وفوق شريعة الله، ما الذي يستطيع أن يقوله وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين؟! الظروف، الملابسات، عدم رغبة الناس، الخوف من الأعداء؟! ألم

[82] روح المعاني: 20/28.

يكن هذا كله في علم الله وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته وأن يسيروا على منهجه وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله؟! قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة والأوضاع المتجدّدة والأحوال المتقلّبة؟ ألم يكن ذلك في علم الله وهو يشدد هذا التشديد ويحذر هذا التحذير، يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء ولكن المسلم أومن يدعون الإسلام ما الذي يقولونه في هذا كله ثم يبقون على شيء من الإسلام أو يبقى لهم شيء من الإسلام، إنه مفرق الطريق الذي لا جدوى عنده من الاختيار ولا فائدة في المماحكة عنده ولا الجدال إما إسلام وإما جاهلية إما إيمان وإما كفر إما حكم الله وإما حكم الجاهلية، وبمجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع حكم من صنع غير الله هو بذاته خروج من دائرة الإسلام، فالإسلام لله وتوحيد الدينونة له دون سواه) اهـ.

– قال سليمان بن ناصر العلوان – وهو يقسم الحكم بغير ما أنزل الله فذكر القسم الثالث –: (أن يقاتل عن هذا الأمر – أي يحكم بغير شرع الله ويقاتل على هذا الأمر – فهذا كفر اكبر، ويوافق على هذا الكفر بعض طوائف أهل الإرجاء، لأن القتال يقولون علامة الاستحلال)[83].

"والحق أن هؤلاء الحكام؛ كفرهم كفر مغلّظ زائد، لأنهم جمعوا أسبابا عديدة للكفر، فخرجوا من الدّين من أبواب شتى، كالتشريع مع الله ما لم يأذن به الله، والحكم بغير ما أنزل الله، واتباع وابتغاء غير دين الله من مناهجهم الكفرية المبتدعة كالديمقراطية ونحوها، وتولي اليهود والنصارى، ومظاهرة إخوانهم المرتدين من طواغيت الدول المختلفة على المجاهدين الموحدين وفتح أبواب الترخيص لوسائله المرئية والمسموعة والمقروءة... وغير ذلك مما يضيق المقام عن حصره وتعداده"[84]، ومعظم هؤلاء يدّعون الإسلام فهم بالكفر صاروا مرتدين[85].

– فائدة؛ القضية العامة والمعيّنة:

المقصود بالقضية المعيّنة؛ هو عدم تطبيق حكم الله فيها وليس تبديل الحكم، فمثلا هو يحكم بالشرع ويرجم الزاني ولكنه لم يرجم فلانا لرشوة أو غيرها.

وأما التشريع العام؛ فهو تبديل حكم الله، ولو في حد من الحدود ووضع حكم آخر تنتظم منه جميع القضايا –كالغرامة المالية ونحوها – بدلا من الحدّ الشرعي.

---

[83] من شريط سمعي؛ الحكم بغير ما أنزل الله.
[84] الثلاثينية: ص36.
[85] العمدة.

قال ابن تيمية: (فإن الحاكم إذا كان ديناً لكنه حكم بغير علم؛ كان من أهل النار، وإن كان عالماً لكنه حكم بخلاف الحق الذي يعلمه؛ كان من أهل النار، وإذا حكم بلا عدل ولا علم أولى أن يكون من أهل النار، وهذا إذا حكم في قضية لشخص، وأما إذا حكم حكماً عاماً في دين المسلمين فجعل الحق باطلاً والباطل حقاً والسنة بدعة، والبدعة سنة، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، ونهى عما أمر الله به ورسوله، وأمر بما نهى عنه ورسوله؛ فهذا لون آخر يحكم فيه رب العالمين وإله المرسلين مالك يوم الدّين)[86].

وسئل العثيمين: هل هناك فرق بين المسألة المعينة والعامة التي تعتبر تشريعا عاما؟ فقال: (نعم هناك فرق، فإن المسائل التي تعتبر تشريعا عاما لا يتأتى فيها التقسيم السابق – أي ما يخرج عن الملة وما لا يخرج – وإنما هي من القسم الأول فقط – أي المخرج من الملة – لأن هذا المشرع تشريعا عاما إنما شرعه لاعتقاده أنه أصلح من الإسلام وأنفع للعباد – كما سبقت الإشارة –)[87].

وما عليه حكام اليوم من جنس التشريع العام المخرج عن الملة، كما فعل بنو إسرائيل.

تنبيه مفيد؛ الطواغيت الأحياء أعظم فتنة من الطواغيت الأموات:

لقد سبق التنبيه؛ على أن الواجب الكفر بجميع الطواغيت، والآن ننبه على فتنة الطواغيت الأحياء.

"وأقصد بالطواغيت الأحياء؛ أئمة الكفر والحكام المرتدين الذين يحكمون المسلمين بالشرائع المبَدَّلة ويشيعون الكفر والفواحش فيهم، وأقصد بالطواغيت الأموات؛ القبور والأحجار والأشجار وغيرها، فلا جدال في أن الأحياء أعظم فتنة وفسادا من هؤلاء، بما لهم من السلطان والترغيب والترهيب ما يفتنون به الناس.

ولذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم بدأ بقتال الطواغيت الأحياء قبل إزالة الطواغيت الأموات، فما أزال النبي صلى الله عليه وسلم الأصنام إلا بعد فتح مكة، ثم أرسل صلى الله عليه وسلم أصحابه لإزالة بقية الأصنام بجزيرة العرب، وذلك بعدما أزال سلطان الطواغيت الأحياء، مع إنكاره صلى الله عليه وسلم عليهم وعلى أصنامهم وتبرُّئه منهم منذ بدء البعثة.

---

[86] مجموع الفتاوى: 388/35.
[87] مجموع فتاوى ورسائل الشيخ: 144/2.

وليس المقصد مما سبق؛ بيان الترتيب، بل بيان الأهمية، فلا يعني كلامي السابق مشروعية السكوت عن الطواغيت الأموات وعابديهم حتى نقضي على الطواغيت الأحياء، فإن الشريعة قد اكتملت، ومن رأى منكم منكرا فليغيره قدر الاستطاعة.

أما الأهمية التي أردت التنبيه عليها؛ فهي أن إفساد الطواغيت الأحياء لدين الناس يكاد يهدد الجم الغفير من المسلمين بالردة الشاملة، تارة بالإرهاب وتارة بالمكر والخديعة، وهذا الإفساد لا يدانيه خطر الطواغيت الميتة".

"وهذه المسألة – ألا وهى كفر الحكام الحاكمين بغير شريعة الإسلام ووجوب جهادهم – هي عندي – في خطرها – تضارع حادثة الردة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، إذ إن هذه المسألة تهدد جماهير غفيرة من المسلمين وأبنائهم بالردة الشاملة إذا تُرِكَ الحال على ما هو عليه من فساد وإفساد هؤلاء الحكام وتبديلهم للشرائع والمفاهيم وإشاعتهم للفواحش في المسلمين".

"فالعجب من أناس ينتسبون إلى العلم والدين ومذهب السلف؛ فَرَّغوا أقلامهم في هذا الزمان لمهاجمة الطواغيت الميتة، ونسوا أو تناسوا الطواغيت الحية، وترى أحدهم يعيش في بلد يستظل بالقوانين الوضعية الكافرة والديمقراطية الكافرة، وهو متجاهل لها تماما ويغض الطرف عنها... فتأمل هذا تدرك بعض أسباب ما نحن فيه من محن وبلاء، وهو أن المستَأمَنِين على العلم والدين لم يؤدوا دورهم في البلاغ والتحذير، فكيف بمن رضي وتابع؟ وكيف بمن أسبغ الشرعية على هؤلاء الطواغيت...

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها؟"[88].

فقه التعامل مع الحاكم بغير ما أنزل الله:

أصل هذه المسألة؛ حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا؛ أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، قال: إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله فيه برهان) [متفق عليه].

حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم علق منازعة الحكام والخروج عليهم بالسيف على ظهور الكفر البواح بالدليل، وقد سبق أن سقنا من أقوال أهل العلم ما يدل دلالة واضحة وضوح الشمس على أن تحكيم غير شريعة الله عز وجل – مهما كان مصدرها واسمها

[88] العمدة: ص333 - 334 .

– فساد في الأرض ومحاربة لله ورسوله، وهي كفر بواح لا خفاء فيه ولا مداورة، لا يشك في كفر الحاكمين بها إلا من طمس الله بصيرته، ولا عذر لأحد في العمل بها أو الخضوع إليها أو إقرارها... ولا ينفعه التسمي باسم الإسلام أو إظهار بعض شعائر الإسلام؛ لإتيانهم ما ينقض أصل الإسلام، ومن تجرّد لله عرف الحق.

قال النووي في فقه حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: (قال القاضي عياض رحمه الله: أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل...)، إلى قوله: (فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع أو بدعة؛ خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته، ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر، ولا يجب في المبتدع إلا إذا ظنوا القدرة عليه، فإن تحققوا العجز؛ لم يجب القيام، وليهاجر المسلم عن أرضه إلى غيرها ويفر بدينه)[89].

ولقد سبق كلام ابن كثير في وجوب قتال هذا الحاكم حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير.

ونقل على ذلك الإجماع ابن تيمية، الذي قال في موضع آخر – بعد ذكر أصناف الكفار الذين يقاتلون أصليين ومرتدين – قال: (كلهم يجب قتالهم بإجماع المسلمين، حتى يلتزموا شرائع الإسلام، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وحتى تكون كلمة الله – التي هي كتابه وما فيه من أمره ونهيه وخبره – هي العليا)[90].

وقال لما سئل عن قتال التتار: (وإذا كانت السنة والإجماع متفقين على أن الصائل المسلم إذا لم يندفع صوله إلا بالقتل؛ قُتل، وإن كان المال الذي يأخذه قيراطًا من دينار، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، من قتل دون حرمه فهو شهيد" ، فكيف بقتال هؤلاء الخارجين عن شرائع الإسلام، المحاربين لله ورسوله، الذين صولهم وبغيهم أقل ما فيهم؟ فإن قتال المعتدين الصائلين؛ ثابت بالسنة والإجماع، وهؤلاء معتدون صائلون على المسلمين في أنفسهم

[89] تأمل الإجماع الذي نقله القاضي عياض على أن الإمامة لا تنعقد لكافر سواء كان أصليا أو مرتدا الحاكم المسلم لو طرأ عليه الكفر انعزل وسقطت ولايته ووجب الخروج عليه، فالقضية من هذا الوجه مجمع عليها لا يجوز فيها الخلاف. تحقق العجز يخرج به الشك والظن، هذا الواجب المجمع عليه يقوم به من تيسر من المسلمين، عند العجز يجب الهجرة من بلد يحكمها الكافر لا يرضى بحكمه ومباركته.

[90] المجموع: 410/28.

وأموالهم وحرمهم ودينهم، وكل من هذه يبيح قتال الصائل عليها، ومن قتل دونها فهو شهيد، فكيف بمن قاتل عليها كلها؟)[91].

والإجماع الذي ذكره القاضي عياض؛ نقله ابن حجر عن ابن بطال[92] وعن ابن التين عن الداودي[93] وعن ابن التين[94].

وقرره ابن حجر مفيدا لعموم قوله: (وملخصه؛ أنه ينعزل بالكفر إجماعا، فيجب على كل مسلم القيام في ذلك)[95].

وقال مالك: (الأمر عندنا فيمن منع فريضة من فرائض الله تعالى فلم يستطع المسلمون أخذها منه؛ كان حقا عليهم جهاده).

مما سبق يتبين لنا؛ أن الحاكم المرتد إن لم تكن له منعة وجب خلعه على الفور، ويُعْرض على القاضي – المسلم الحاكم بشريعة الإسلام – فإن تاب وإلا قتل، لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (من بدل دينه فاقتلوه).

قال الصنعاني: (الحديث دليل على قتل من بدل دينه – أي المرتد – وهذا إجماع)[96].

وقال الشوكاني: (باب قتل المرتد)، ثم ذكر الحديث وقال: (ظاهره العموم في كل من وقع منه التبديل)[97].

وإن تاب؛ لم يرجع إلى ولايته، كما هي سنة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ولا استعمل عمر قط، بل ولا أبو بكر على المسلمين؛ منافقا، ولا استعملا من أقاربهما، ولا كان تأخذهما في الله لومة لائم، بل لما قاتلا أهل الردة وأعادوهم إلى الإسلام؛ منعوهم ركوب الخيل وحمل السلاح حتى تظهر صحة توبتهم، فهؤلاء لما تخوف منهم أبو بكر وعمر نوع نفاق لم يولّهم على المسلمين)[98].

---

91 المجموع: 541/28.
92 فتح الباري: 7/13.
93 8/13.
94 116/13.
95 133/13.
96 سبل السلام.
97 نيل الأوطار.
98 المجموع: 65/35.

وإن كان الحاكم المرتد ممتنعا بطائفة تقاتل دونه؛ وجب قتالهم، وكل من قاتل دونه فهو كافر مثله، لقول الله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}، فيقاتل كل هؤلاء قتال المرتدين، وإن كانوا ينطقون بالشهادتين ويظهرون بعض شعائر الإسلام لإتيانهم بما ينقض أصل الإسلام[99].

قال في المسوى: (من ارتد عن الإسلام إن كان في منعة من قومه؛ جمع الإمام المسلمين وقاتلهم، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ}، وفي هذه الآية إخبار عما علم الله تعالى وقوعه، وقد ارتد أكثر العرب[100] زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فبعث إليهم المسلمين وقاتلهم حتى رجعوا، وعلى هذا أهل العلم، ومن ارتد عن الإسلام وليس له منعة؛ قُتل، وعليه أهل الإسلام)[101].

قام الخلفاء وملوك الإسلام في عصور مختلفة بإقامة حكم الله تعالى في المرتدين، تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يخفى موقف الصديق تجاه المرتدين وقتالهم، وسار على ذلك بقية الخلفاء الراشدين ومن تبعهم، كما فعل علي بالزنادقة، واشتهر المهدي الخليفة بمتابعة الزنادقة المرتدين.

وأمر "بني عبيد القداح" لا يخفى، فإنهم ظهروا على رأس المئة الثالثة؛ فادّعى عبيد الله أنه من آل ذرية فاطمة وتزيّ بزيّ الطاعة والجهاد في سبيل الله، فتبعه أقوام من أهل المغرب، وصار له دولة كبيرة في المغرب ولأولاده من بعده، ثم ملكوا مصر والشام وأظهروا شعائر الإسلام وإقامة الجمعة والجماعة ونصبوا القضاة والمفتين، ولكنهم أظهروا أشياء من الشرك ومخالفة الشرع، وظهر منهم ما يدل على نفاقهم؛ فأجمع أهل العلم على أنهم كفار وأن دارهم دار حرب، مع إظهار شعائر الإسلام وشرائعه، وفي مصر من العلماء والعباد وناس كثير، وأكثر أهل مصر لم يدخل فيما أحدثوه، ومع ذلك أجمع أهل العلم على ما ذكرنا.

حتى أن بعض أكابر العلماء المعروفين بالصلاح قال: (لو أن معي عشرة أسهم لرميت واحد للنصارى المحاربين، ورميت بالتسعة في بني عبيد).

- فائدة؛ معنى الامتناع:

[99] راجع العمدة: ص309.
[100] ذكر شيخ الإسلام في منهاج السنّة 217/7: (أن أتباع مسيلمة الكذاب وحده كانوا نحو مائة ألف أو أكثر).
[101] الروضة الندية، ط دار ابن حزم: ص694.

سبق في كلامنا عبارة "الممتنع بشوكة"، مما يحتم علينا تفسير معنى المنعة.

الإمتناع يرد على معنيين:

– امتناع عن العمل بالشريعة جزئيا أو كليا؛ كترك الصلاة والزكاة، وهذا الإمتناع هو الذي تردد ذكره في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية: (أيما طائفة امتنعت عن شرعة من شرائع الإسلام)، والممتنع عن الشرع بهذا المعنى؛ قد يكون كافرا أو فاسقا بحسب ما امتنع عليه.

– امتناع عن القدرة؛ أي قدرة المسلمين أن يوقفوه ويحاسبوه ويحاكموه لشرع الله.

قال ابن تيمية: (معنى القدرة عليهم؛ إمكان الحد عليهم لثبوته بالبيّنة، وكونهم في قبضة المسلمين)[102].

وقال أيضا: (وهذا كله إذا قدر عليهم، فأما إذا طلبهم السلطان أو نوابه؛ لإقامة الحد بلا عدوان، فامتنعوا عليه، فإنه يجب على المسلمين قتالهم باتفاق العلماء، حتى يقدر عليهم كلهم).

وقال: (العقوبات التي جاءت بها الشريعة لمن عصي الله ورسوله نوعان؛ أحدهما: عقوبة المقدور عليه، من الواحد والعدد، كما تقدم، والثاني: عقاب الطائفة الممتنعة، كالتي لا يقدر عليها إلا بقتال)[103].

ولا تلازم بين النوعين، فقد يكون الممتنع عن العمل بالشريعة؛ مقدوراً عليه في دار الإسلام، كمن امتنع عن الزكاة وهو فرد مقدور عليه في دار الإسلام، وقد يجتمعان، فيمتنع الممتنع عن الشريعة بدار كفر أو بشوكة وطائفة وقانون وسلطان دولة، بحيث لا يتمكن المسلمون من إنزاله على حكم الله تعالى وإقامة حد الله عليه.

والممتنع عن القدرة، قد يكون محارباً باليد، وقد يكون محارباً باللسان فقط[104].

والإمتناع عن القدرة يتأتى بأمرين: اللحوق بدار الحرب حيث لا سلطان، أو الإمتناع بطائفة وشوكة، أي بأعوان وسلاح.

– ثمرة الفائدة:

[102] الصارم: ص507.
[103] المجموع: 28/317 - 349.
[104] وانظر الصارم المسلول: ص388

نص العلماء على أن الممتنع عن القدرة لا تجب استتابته، فمن باب أولى المحارب الذي داهم ديار المسلمين واحتلها وتسلط على مقاليد الحكم فيها.

وقال ابن تيمية: (ولأن المرتد لو امتنع بأن يلحق بدار الحرب، أو بأن يكون المرتدون ذوي شوكة يمتنعون بها عن حكم الإسلام، فإنه يقتل قبل الاستتابة بلا تردد)[105] اهـ.

وقال أيضا: (على أن الممتنع لا يستتاب، وإنما يستتاب المقدور عليه)[106] اهـ.

وقد فرق شيخ الإسلام أيضاً في مواضع عديدة من كتبه بين المرتد ردة مغلظة – وهو الذي يضيف إلى ردته الامتناع أو المحاربة والقتل أو القتال – فيقتل بلا استتابة، وبين المرتد ردة مجردة فيقتل إلا أن يتوب[107].

وقال: (فكل من بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دين الله الذي بعثه به فلم يستجب له؛ فإنه يجب قتاله {حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه})[108].

"إذن فالممتنع عن شرائع الإسلام والممتنع عن النزول على حكم الله، والمحارب للمسلمين الخارج عن قدرتهم وحكمهم – سواء امتنع بدولة الكفر أو بقوانينها أو بجيوشها ومحاكمها – هذا قد جمع بين نوعي الامتناع، فلا يجب تبين الشروط والموانع في حقه قبل التكفير والقتال... إذ هو لم يسلم نفسه للمسلمين، ولا سلم بشرعهم وحكمهم حتى ينظر له في ذلك... فلا يقال في حق من كانوا كذلك؛ أنهم لم تقم عليهم الحجة، كما يهذر به بعض من يهرف بما لا يعرف، خصوصاً إذا كانوا محاربين مقاتلين لنا في الدين، وقد تسلطوا على ديار الإسلام وامتنعوا بشوكتهم عن شرائعه، وأقاموا وفرضوا شرائع الكفر والطاغوت"[109].

– معنى الإستتابة:

ويراد بالاستتابة معنيان أيضاً:

الأول: طلب التوبة ممن حكم عليه بالردة.

---

[105] الصارم المسلول: ص322

[106] الصارم المسلول: ص325 - 326

[107] أنظر على سبيل المثال الفتاوى: 59/20.

[108] المجموع: 350/28.

[109] انظر الثلاثينية: ص68 – 69، والجامع في طلب العلم الشريف: 686 - 687.

الثاني: تبين الشروط والموانع قبل الحكم عليه بالردة[110].

الأتباع لهم حكم الطائفة:

لقد سبق كلام الشيخ عبد القادر بن عبد العزيز؛ في أن كل من نصر الكافر بالقول أو بالفعل لنصرة كفره؛ فهو كافر مثله.

وقد ورد في الفتوى رقم (9247) من فتاوى "اللجنة الدائمة للبحوث العلمية بالسعودية"، والسؤال: (ما حكم عوام الروافض الإمامية الإثنى عشرية؟ وهل هناك فرق بين علماء أي فرقة من الفرق الخارجة عن الملة وبين أتباعها من حيث التكفير أو التفسيق؟)، فجاء في الجواب: (الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه، وبعد: من شايع من العوام إماماً من أئمة الكفر والضلال، وانتصر لسادتهم وكبرائهم بغياً وعدواً؛ حُكِمَ له بحكمهم كفراً وفسقاً، قال الله تعالى: {يسألك الناس عن الساعة}... وغير ذلك من السنّة، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قاتل رؤساء المشركين وأتباعهم، وكذلك فعل أصحابه، ولم يفرقوا بين السادة والأتباع) اهـ - بتوقيع: عبد الله بن قعود، وعبد الله بن غديّان، وعبد الرازق عفيفي، وعبد العزيز بن باز -

قال صاحب "الجامع": (وعلى هذا؛ فإذا كان رأس الطائفة مرتداً، كمسيلمة وطليحة، سُمِّيت طائفته بالمرتدين)[111].

فحكم الطائفة حكم رأسها، والأتباع لهم حكمه.

---

[110] الثلاثينية: ص69.
[111] الجامع: 687 - 689.

الفصل الثالث
في التعريف بالجهاد وبيان فضله

الجهاد لغة: مشتق من الجهد بفتح الجيم وضمها، وهو المشقة.

قال الحافظ ابن حجر: (الجهاد - بكسر الجيم - أصله المشقة، ويقال؛ جهدت جهاده بلغت المشقة، وشرعا: بذل الجهد في قتال الكفار)[112].

وقال النووي: (الجهاد والمجاهدة والإجتهاد والتجاهد بذل الوسع)[113].

ويقول ابن رشد القرطبي: (فكل من أتعب نفسه في ذات الله؛ فقد جاهد في سبيل الله، إلا أن الجهاد إذا أطلق فلا يقع بلإطلاقه إلا على مجاهدة الكفار بالسيف حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية وهم صاغرون)[114].

حكم الجهاد:

فالجهاد فرض كفاية ويتعين في حالات.

قال ابن قدامة: (معنى فرض الكفاية؛ الذي إن لم يقم به ما يكفي أثم الناس كلهم[115]، وإن قام به من يكفي سقط عن سائر الناس، ويتعين في ثلاثة مواضع:

أحدها: إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان؛ حرم على من حضر الانصراف وتعيّن عليه المقام.

الثاني: إذا نزل الكفار ببلد يتعين على أهله قتالهم ودفعهم - وهذا قتال دفع -

الثالث: إذا استنفر الإمام قوما لزمهم النفير)[116].

---

112 فتح الباري: 2/6.

113 تحرير التنبيه.

114 المقدمات والممهدات: 342/1.

115 ومن هنا تدرك أن الناس كلهم آثمون حشا المجاهدين والعدوّ جاثم على المسلمين وعدد المجاهدين لا يفي بالمقصود من دفعه ودحره.

116 المغني: 364/10 - 366، بتصرف.

قال الشوكاني عن الماوردي: (والتحقيق أن جنس جهاد الكفار يتعين على كل مسلم، إما بيده وإما بلسانه وإما بقلبه) اهـ.

وذلك لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)[117].

وهذا عام لجميع الكفار والمشركين، سواء المشركين في العبادات والنسك أو في الحكم والإمامة.

قال ابن تيمية: (والجهاد منه ما هو باليد، ومنه ما هو بالقلب، والدعوة والحجة واللسان والرأي والتدبير والصناعة، فيجب بغاية ما يمتلكه)[118].

"وأعلى هذه الدرجات وأفضلها؛ الجهاد بالنفس، لأنه أشق على المقاتلين وأكثر تضحية، ولأنه قد يترتب عليه الشهادة، ومعلوم ما أعد الله للشهداء من الأجر والثواب، ولأنه أشد نكاية بالعدو مما سواه من أنواع الجهاد، ولأن ما سواه من أنواع الجهاد مكمّل له، والجهاد بالنفس هو الذي يرهب العدوّ ويحطّم معنوياته، وهو الذي يتحقق به النصر غالبا، وتتم به حماية حوزة المسلمين والذب عن حرماتهم، وقديما قيل:

السيف أصدق إنباء من الكتب   في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب"[119].

أنواع الجهاد:

والجهاد نوعان:

جهاد الطلب: وهو أن تطلب العدوّ وتغزوه في داره.

جهاد الدفع: وهو قتال العدوّ البادئ بقتال المسلمين.

نقول مهمة متعلّقة بقتال الدفع:

قال ابن عبد البر: (فرض عام متعين على كل أحد ممن يستطيع المدافعة والقتال وحمل السلاح من البالغين والأحرار، وذلك أن يحل العدوّ بدار الإسلام محاربا لهم، فإذا كان ذلك؛

[117] رواه أحمد والنسائي وصححه الحاكم.
[118] المستدرك على المجموع: 213/3.
[119] فتوى للشيخ الشعيبي رحمه الله، نقلا عن صهيل الجياد .

وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه، خفافا وثقالا، شبابا وشيوخا، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج، مقل أو مكثر، وإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم؛ كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا – قلوا أو كثروا – على حسب ما لزم أهل تلك البلدة، حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم، وكذلك كل من علم بضعفهم من عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم؛ لزمه أيضا الخروج إليهم، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم، حتى إذا قام بدفع العدوّ أهل الناحية التي نزل العدوّ عليها واحتل بها؛ سقط الفرض عن الآخرين، ولو قارب العدوّ دار الإسلام ولم يدخلها؛ لزمهم أيضا الخروج)[120].

وقال الكاساني: (فأما إذا عم النفير؛ بأن هجم العدو على بلد، فهو فرض عين، يُفترض على كل واحد من آحاد المسلمين ممن هو قادر عليه، لقوله سبحانه وتعالى: {انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، قيل: نزلت في النفير، وقوله سبحانه وتعالى: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفسهم عَنْ نَفْسِهِ}، ولأن الوجوب على الكل قبل عموم النفير ثابت، لأن السقوط عن الباقين بقيام البعض به، فإذا عم النفير لا يتحقق القيام به إلا بالكل، فبقي فرضاً على الكل عيناً بمنزلة الصوم والصلاة، فيخرج العبد بغير إذن مولاه، والمرأة بغير إذن زوجها، لأن منافع العبد والمرأة في حق العبادات المفروضة عيناً مستثناة عن ملك المولى والزوج شرعاً، كما في الصوم والصلاة، وكذا يباح للولد أن يخرج بغير إذن والديه، لأن حق الوالدين لا يظهر في فروض الأعيان كالصوم والصلاة، والله سبحانه وتعالى أعلم)[121].

وقال النووي: (قال أصحابنا: الجهاد اليوم فرض كفاية، إلا أن ينزل الكفار ببلد المسلمين، فيتعين عليهم الجهاد، فإن لم يكن في أهل ذلك البلد كفاية وجب على من يلهيم تتميم الكفاية)[122].

قال شيخ الإسلام بن تيمية: (وأما قتال الدفع؛ فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين، فواجب إجماعاً، فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه، فلا يشترط له شرط، بل يدفع بحسب الإمكان، وقد نص على ذلك العلماء أصحابنا وغيرهم، فيجب التفريق بين دفع الصائل الظالم الكافر وبين طلبه في بلاده)[123].

[120] الكافي: 205/1.
[121] بدائع الصنائع: 97/7.
[122] شرح صحيح مسلم: 63/8.
[123] الاختيارات: 520/4.

وقال أيضا: (وإذا دخل العدو بلاد الإسلام؛ فلا ريب أنه يجب دفعه على الأقرب فالأقرب، إذ بلاد الإسلام كلها بمنزلة البلدة الواحدة، وأنه يجب النفير إليه بلا إذن والد ولا غريم ونصوص أحمد صريحة بهذا).

وقال: (فأما إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين؛ فإنه يصير دفعه واجبًا على المقصودين كلهم، وعلى غير المقصودين لإعانتهم، كما قال الله تعالى: {وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعليكم النَّصْرُ إِلاَّ على قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ}، وكما أمر صلى الله عليه وسلم بنصر المسلم، وسواء كان الرجل من المرتزقة للقتال أو لم يكن، وهذا يجب بحسب الإمكان على كل أحد بنفسه وماله، مع القلة والكثرة، والمشي والركوب، كما كان المسلمون لما قصدهم العدو عام الخندق لم يأذن الله في تركه لأحد، كما أذن في ترك الجهاد ابتداء لطلب العدو، الذي قسمهم فيه إلى قاعد وخارج)[124].

وقال: (وقتال الدفع؛ مثل أن يكون العدو كثيراً لا طاقة للمسلمين به، لكن يخاف إن انصرفوا عن عدوهم عطف العدو على من يخلفون من المسلمين، فهنا قد صرح أصحابنا؛ بأنه يجب أن يبذلوا مهجهم ومهج من يخاف عليهم في الدفع حتى يسلموا، ونظيرها أن يهجم العدو على بلاد المسلمين وتكون المقاتلة أقل من النصف؛ فإن انصرفوا استولوا على الحريم، فهذا وأمثاله قتال دفع، لا قتال طلب، لا يجوز الانصراف فيه بحال، ووقعة أحد من هذا الباب)[125].

قال النووي: (إذا أسر الأعداء مسلما أو مسلمين؛ فالراجح أن المسألة كدخول العدوّ ديار المسلمين – يعني كقتال الدفع – لأن حرمة المسلم أعظم من حرمة الدار، فيجب العمل على استخلاص الأسير والأسيرين) اهـ.

فوائد من نقول العلماء:

– **الأولى:** لا بد من التفرقة بين حال الطلب وحال الدفع، فإن اشتراط القدرة لوجوب الجهاد إنما هو في حال جهاد الطلب، أما في حال جهاد الدفع – كأن يغزو العدو أرض المسلمين – فإنه يجب الدفاع بما تيسر ولا يشترط له شرط، ولا يحل الانصراف فيه.

كما "لا يشترط في صحة الجهاد؛ أن يغلب على ظن الفئة المجاهدة أنها تملك من الشوكة ما يحقق لها الظفر على الأعداء، بل يكفي أن تتمكن من إحداث نكاية في العدو

124 مجموع الفتاوى: 358/28.
125 الإختيارات الفقهية: ص311.

ولو كان ذلك بمجرد بث الرعب في قلوبهم، أو أن تحقق للمسلمين مصلحة، ولو كانت هذه المصلحة مجرد تجرئة قلوب أهل الإيمان"[126].

"الذي دلّت عليه النصوص الشرعية أن غير القادر؛ إن تكلف الجهاد فجاهد، فلا شيء عليه، حتى لو أدى ذلك إلى قتله وعدم تحقيق الظفر على الأعداء، متى كان في ذلك مصلحة شرعية بإحداث النكاية في العدوّ أو بثّ للرعب في قلوبهم أو تجرئة لأهل الإيمان أو نحو ذلك، والأدلة كثيرة.

منها؛ قتال عاصم بن ثابت لنفر من عضل وقارة وقتله في سبعة نفر، وقال: (أما أنا فلا أنزل في ذمّة كافر...)[127].

ومنها؛ حمل سلمة بن الأكوع وأبي قتادة الأنصاري على فوارس عبد الرحمن الفزاري، ومدح النبي أبا قتادة وسلمة على فعلهما، بقوله: (خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة)[128]، مع أن كل منهما حمل على العدو وحده، ولم يتأنى إلى أن يلحق به المسلمون.

من هذه الأدلة وغيرها؛ وجدنا أهل العلم يجعلون القدرة شرط لوجوب الجهاد[129]، لكنهم لا يجعلونه شرط في صحته"[130].

- **الثانية**: قتال الدفع في حالة قتال العدو إذا نزل بدار المسلمين أو قاربها؛ واجب - إجماعا - على كل من يقدر حمل السلاح والمدافعة بنفسه وماله، مع القلة والكثرة، فلا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه... ولا يجوز الانصراف فيه.

- **الثالثة:** قتال الحكام المرتدين؛ جهاد دفع متعين[131]، وهو يقدم على جهاد الطلب، لأن هؤلاء الحكام عدو كافر تسلط على بلاد المسلمين، ولم نسمع أن الشريعة وردت بالتفريق بين الكافر الأجنبي والكافر الوطني فيما يترتب على الكافر من أحكام.

"فمناط العداوة بين المؤمن والكافر؛ هو الكفر لا غير، وما قيل في العداوة يقال في العقوبة، فقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من بدل دينه فاقتلوه)، فجعل علة القتل هي

---

[126] مراحل تشريع الجهاد: 82/81.

[127] والقصة أخرجها البخاري برقم 3045.

[128] والقصة أخرجها مسلم برقم 1807.

[129] مع التفريق بين الطلب والدفع كما أسلفنا.

[130] بتصرف يسير.

[131] كما سبق في كلام القاضي عياض وابن حجر: (يجب على كل مسلم القيام في ذلك)، ومعنى ذلك أن المتعلق عنه بعد علمه بوجوبه مرتكب لكبيرة فاسق للوعيد الوارد في ترك الجهاد العيني.

تبديل الدين – أي الكفر بعد الإسلام – وهذا الوصف قائم بالكافر الأجنبي والوطني على السواء، وإذا تسلّط على المسلمين ببلد ما؛ فلا فرق بين كونه قادما من خارج البلدة وبين كونه من أهلها يَحكمها فكَفَر، أو كَفَر وتَسلَّط عليها"[132].

قال الشيخ أيمن الظواهري: (فضلا عن الكافر فقد صار بكفره أجنبيا عن المسلمين أهل البلدة، ذلك لقوله تعالى: {قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ}، والذين يفرقون بين الكافر الأجنبي والوطني؛ كالذي يفرق بين الخمر المستورد والمحلي، فلا يخفى أن كلا الأمرين حرام لأن علة التحريم – وهي الإسكار – ثابتة في الخمرين، وكذلك فأن علة وجود القتال ثابتة في الكافرين الأجنبي والوطني، بل إن هذا الذي نسمّيه بـ "الكافر الوطني" أغلظ كفرا لكونه مرتدا، كما قال ابن تيمية: "وكفر الردة أغلظ بالإجماع من الكفر الأصلي")[133].

وإذا علمت أنه لا فرق بين العدو الأجنبي والوطني، فاعلم أن احتلال الكافر لبلاد المسلمين لم يعد بتلك الطريقة القديمة عن طريق الجيوش الجرارة والاستيطان، فقد أخذ أشكالا مموهة من خلال تنصيب الحكام الموالين والخادمين لمصالح اليهود والنصارى مع إنشاء القواعد العسكرية، وحال الأنظمة العربية لا تخرج عن هذه المنظومة، والواقع خير شاهد، وأصبح الجهاد الواجب للكفار الممتنعين عن بعض الشرائع – كما في الزكاة والخوارج ونحوهما – يجب ابتداء ودفعا"[134]

– **الرابعة:** وهي أن بلاد الإسلام واحدة – كما نصّ الفقهاء – فحيثما اعتدي على مسلم – أيا كانت جنسيته – وجب على المسلمين نجدته بالنفس والمال، فما كانت الحدود الجغرافية لتمنع حقوق الأخوة الإيمانية.

حكم الجهاد في وقتنا:

قال الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي: (وحكم الجهاد في وقتنا الحاضر؛ أنه فرض عين على كل قادر عليه، وقد أجمع العلماء – قديما وحديثا – على أن الجهاد يكون فرض عين في ثلاث حالات: الأولى؛ إذا حاصر العدو بلدا من بلاد المسلمين أو احتلها، ونحن إذا نظرنا إلى ما يجري في فلسطين وفي الشيشان وجدنا أن العدو قد احتل هذه البلدان وآذى أهلها بشتى أنواع الأذى، من القتل والتدمير والسلب والنهب وانتهاك الأعراض، إذا فيجب على الأمّة الإسلامية – حكاما ومحكومين – كل فيما يخصه؛ أن يهبّوا لنصرة إخوانهم المضطهدين في هذه البلدان وغيرها، وليعلنوا الجهاد ويشنوها حربا شعواء على أعداء الله) اهـ.

---

[132] العمدة في إعداد العدة.

[133] الحوار مع الطواغيت مقبرة الدعوة والدعاة.

[134] المجموع: 358/28.

وقال الشيخ علي الخضير: (الجهاد في هذا الوقت فرض عين، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ}، وقد نقل جمع من أهل العلم؛ أن بلاد المسلمين إذا دوهمت وجب القتال، وأيضا إذا صال صائل؛ وجب فرضا، وقد صال التحالف الدولي اليوم لمحاربة الإرهاب، ويقصدون محاربة الإسلام والمسلمين والجهاد في كل مكان، كما صرّح طاغوتهم الأكبر: "أنها حرب صليبية"، وهي حرب متعددة الأنواع؛ عسكرية اقتصادية وثقافية واجتماعية، وفي جميع الأمكنة، وعلى جميع الأصعدة، فنوعية الحرب اليوم اختلفت وليس لها مبدأ معيّن ولا أرض محددة، فهم صالوا على الإسلام في كل مكان، فنحاربهم في كل مكان) اهـ.

ومهما يكن فـ "أي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك وحدوده تضاع ودينه يترك وسنة رسول الله يرغب عنها، وهو بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء، الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياستهم فلا مبالاة بما جرى على الدين، وخيارهم المتخزن المتلمظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل، وجدّ واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه... وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم؛ قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب، فالقلب كلما كانت حياته أتم؛ كان غضبه لله ورسوله أقوى وانتصاره للدين أكمل"[135].

العجز يوجب الاستعداد:

وإذا عجز المسلمون عن الجهاد؛ وجب الاستعداد.

كما قال شيخ الإسلام: (كما يجب الاستعداد للجهاد بإعداد القوة ورباط الخيل في وقت سقوطه للعجز، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)[136].

فليس العفو والصفح هو غاية المنى ونهاية خطوات هذا الدين، بل على الأمّة المسلمة أن تمضي قدما في تحسين ظروفها، وفي إزالة العوائق من طريقها، وعليهم أن لا يحمّلوا ضعفهم الحاضر؛ على دين الله القوي المتين.

حاجة الدين للجهاد:

قال ابن القيم: (وكان محرما ثم مأذونا به ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورا به لجميع المشركين)[137].

[135] إعلام الموقعين: 121/2.
[136] المجموع: 259/28.

قال عبد الملك البراك: (كان هذا هو المنهج الذي أوحاه الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في دعوته النّاس للدخول في هذا الدين العظيم، وقد سار على هذا النهج الصحابة الكرام رضي الله عنهم ومن جاء بعدهم، وذلك بيّن لمن قرأ تاريخهم وتتبع سيرتهم، إلا أن الأهواء بعد تلك العصور الطيبة داخلت نفوسا كثيرة صاحبها طول الأمل والحرص على الدنيا وملذاتها وكراهية الموت، فظهرت مناهج تترا، كلما هلك منهج خلفه آخر، وإلى الله المشتكى)[138].

قال السيد قطب – معلقا على سرد بن القيم لمراحل تشريع الجهاد، السمة الأولى –: (هي الواقعية والجدية في نهج هذا الدّين... فهو حركة تواجه واقعا بشريا وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي، أنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية تقوم عليها أنظمة واقعية عملية، تسندها سلطات ذات قوة مادية، ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه، تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات، وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها، تلك التي تحول بين جمهرة النّاس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات، وتخضعهم بالقهر والتضليل، وتعبّدهم لغير ربهم الجليل، إنها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي، كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد، وهذه كتلك سواء في نهج هذا الدين، وهو يتحرك لإخراج النّاس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحدة.

السمة الثانية: في منهج هذا الدين هي الواقعية الحركية، فهو حركة ذات مراحل، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها، فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة، كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة، والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد ولا يراعون هذه السمة فيه ولا يدركون طبيعة المراحل التي مرّ بها هذا المنهج وعلاقة النّصوص المختلفة بكل مرحلة منها، الذين يصنعون هذا؛ يخلطون خلطا شديدا، ويلبسون نهج هذا الدين لبسا مضللا، ويحمّلون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائية، ذلك انهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصا نهائيا يمثل القواعد النهائية في هذا الدين، فيقولون – وهم مهزومون روحيا وعقليا تحت ضغط الواقع اليائس لذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان –؛ الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع، ويحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلا بتخليه عن منهجه، وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعا وتعبيد النّاس لله وحده وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد، لا بقهرهم على اعتناق عقيدته، ولكن

---

[137] زاد المعاد: 58/2.

[138] ردود على البوطي: ص32، [(عبد الملك البراك؛ هو الاسم الذي كتب به الشيخ عبد الآخر حماد، كتابه في الرد على البوطي في كتابه عن الجهاد) المنبر].

بالتخلية بينه وبين هذه العقيدة بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة، أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة، تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها، إنهم يعلمون جيدا أنهم لا يستطيعون السيطرة على الأمّة إذا كانت تملك وسائل الجهاد... وإذا أردت أن تعرف فضل الجهاد وأهميته؛ فقارن بين حالة المسلمين قبل أن يشرع لهم الجهاد وحالتهم بعد أن فرض عليهم الجهاد، وقد صوّر الشاعر هذا المعنى بقوله:

دعا المصطفى دهرا بمكة لم يجب   وقد لان منه جانب وخطاب
فلما دعا والسيف صلت بكفه   له أسلموا واستسلموا وأنابوا

بالجهاد قامت دولة الإسلام واتسعت حتّى عمّ الإسلام جزيرة العرب، وحتّى استولى المسلمون بالجهاد على ممالك كسرى وقيصر وأصبحوا سادة الدنيا وقادتها...) اهـ.

قال ابن حجر: (قال بن دقيق العيد، القياس يقتضي أن يكون الجهاد أفضل الأعمال التي هي وسائل، لأن الجهاد وسيلة إلى إعلان الدين ونشره وإخماد الكفر ودحضه ففضيلته بحسب فضيلة ذلك والله أعلم)[139].

هدي الصحابة في قتال المرتدين:

الجهاد في الإسلام عبادة من أجلّ العبادات، بل هو ذروة سنام الإسلام – كما أخبر سيد المرسلين –

والجهاد – كما رأينا – مرّ بمراحل، أي استقر حكمه في المرحلة الأخيرة على وجوب قتال الكفار من قاتلنا منهم ومن كفّ عنّا حتّى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، هذه المرحلة استقر عندها حكم الجهاد ومات عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم...

قال ابن كثير: (وقام بالأمر بعده وزيره وصدّيقه وخليفته أبو بكر الصّديق رضي الله عنه، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل فثبته الله تعالى به، فوطّد القواعد وثبّت الدعائم وردّ شارد الدين وهو راغم وردّ أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها وبيّن الحق لمن جهله وأدى عن رسول الله ما حمله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان...) اهـ.

أنظر تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً}.

---

[139] فتح الباري: 5/6.

وقد انفرد أبو بكر رضي الله عنه دون الخلفاء من بعده بهذه المزية، ألا وهي قتال المرتدين حفظا لرأس مال الإسلام.

كما قال أبو هريرة رضي الله عنه: (و الذي لا إله إلا هو لولا أبا بكر أُستخلف؛ ما عبد الله).

وفي الحديث الثابت في الصحيحين قال رضي الله عنه: (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه)[140].

واستدل الشيخ أبو إسحاق بهذا وغيره؛ على أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أعلم الصحابة، لأنهم كلهم وقفوا عن فهم الحكم في المسألة إلا هو، ثم ظهر لهم بمباحثته لهم أن قوله هو الصواب فرجعوا إليه[141].

البلاغ العام:

ذكر الطبري في تاريخه من طريق سيف؛ أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كتب كتابا إلى أهل الردة قال فيه: (وإني بعثت إليكم فلانا في جيش المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، وأمرته ألا يقبل من أحد إلا الإيمان بالله، وأن لا يقتله حتّى يدعوه إلى الله عزّ وجل)[142].

وقال في رسالة ثانية إلى الجند والأمراء: (ومن لم يجب داعية الله؛ قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمه، لا يقبل من أحد شيء أعطاه إلا الإسلام)[143].

تنبيه مفيد:

قال ابن القيم: (ومنها أن المسلمين يدعون الكفار قبل قتالهم إلى الإسلام، وهذا واجب إن كانت الدعوة لم تبلغهم ومستحب إن بلغتهم الدعوة، هذا إذا كان المسلمون هم

[140] بل اثر عليه رضي الله عنه: (والله لو لم يبق إلا الذر لجاهدتهم به).
[141] بتصرف العمدة: ص438.
[142] تاريخ الطبري: 451/3.
[143] ص 252.

القاصدون للكفار، فأما إذا قصدهم الكفار في ديارهم فلهم أن يقاتلوهم بغير دعوة لهم يدفعونهم عن أنفسهم وحريمهم)[144].

قال محمد بن الحسين الشيباني: (لأن المسلم لو شهر سيفه على مسلم حلّ للمشهور عليه سيفه قتله للدفع عن نفسه، فهنا أولى، والمعنى في ذلك أنهم لو اشتغلوا بالدعوة إلى الإسلام فربما يأتي السبي والقتل على حرم المسلمين وأموالهم وأنفسهم، فلا يجب الدعاء)[145].

نهاية الحرب:

عن طارق بن شهاب قال: (جاء وفد بزاخة من أسد إلى أبي بكر يسألونه الصلح، فخيرهم بين الحرب المجلية والسلم المخزية، فقالوا: هذه المجلية قد عرفناها فما المخزية؟ فقال: ننزع منكم الحلقة والكراع ونغنم ما أصبنا منكم وتردّون علينا ما أصبتم منّا، وتدون قتلانا وتكون قتلاكم في النّار وتتركون أقواما يتبعون أذناب الإبل حتّى يُري الله خليفة رسوله والمهاجرين والأنصار أمرا يعذرونكم به، فعرض أبو بكر ما قال على القوم، فقام عمر بن الخطاب فقال: قد رأيت رأيا وسنشير عليك، أمّا ما ذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزية؛ فنعم ما ذكرت، وأما ما ذكرت نغنم ما أصبنا منهم وتردون ما أصبتم منّا؛ فنعم ما ذكرت، وأما ما ذكرت تدون قتلانا وتكون قتلاكم في النّار؛ فإن قتلانا قاتلت فقتلت على أمر الله، أجورها على الله، ليس لها ديات، فتبايع القوم على ما قال عمر)[146].

المجلية؛ المفرقة لأهلها لشدة وقعها وتأثيرها، وقال الحافظ: (معناها الخروج عن جميع المال)، والمخزية؛ مأخوذة من الخزي ومعناها؛ القرار على الذل والصغار، والحلقة؛ السلاح، والكراع؛ جميع الخيل، وفائدة نزع ذلك منهم؛ أن لا يبقى لهم شوكة ليأمن النّاس من جهتهم... يتبعون أذناب الإبل؛ أي في رعايتها لهم إذا نزعت منهم آلة الحرب رجعوا أعرابا في البوادي لا عيش لهم إلا ما يعود عليهم من منافع إبلهم

قال ابن بطال: (كانوا ارتدوا ثم تابوا، فأوفدوا رسلهم إلى أبي بكر يعتذرون إليه، فأحب أبو بكر أن لا يقضي بينهم إلا بعد المشاورة في أمرهم، فقال لهم: ارجعوا واتبعوا أذناب البقر في الصحاري) اهـ.

---

[144] أحكام أهل الذمة: 5/1.

[145] السير الكبير، ذكرت هذا حتى لا يشوش علينا أحد بمسألة دعوة هذه الطوائف المرتدة.

[146] رواه البرقاني على شرط البخاري، واخرج بعضه البخاري.

"والذي يظهر أن المراد بالغاية التي أنظرهم إليها؛ أن تظهر توبتهم وصلاحهم بحسن إسلامهم"[147].

قال الشوكاني: (وقد استدل بالأثر؛ أنه يجوز مصالحة الكفار المرتدين على أخذ أسلحتهم وخيلهم وردّ ما أصابوه من المسلمين)[148].

فوائد ما سبق:

1) اختلف الصحابة في قتال المرتدين، ثم ترجح قول أبي بكر رضي الله عنه، ومضى القوم عليه.

2) تضمنت رسالة البلاغ العام لأهل الردّة أن لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل والقتال لا غير.

3) حين جاء وفد بزاخة يسألون خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح؛ خيّرهم بين الحرب المجلية أو السّلم المخزية.

4) مجيء الوفد يسأل خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح وتخييره لهم بين الحرب المجلية أو السّلم المخزية؛ يدل على أن الحرب حقّقت هدفها، فغاية الحرب أن يكون الدّين كله لله، ومن كون الدّين كله لله إذلال للكفر وأهله، ولا يناقض هذا إلا ترك الكفار على عزّهم وإقامة دينهم كما يحبون، بحيث تكون لهم الشوكة والكلمة.

5) ورود كلمة "الصلح" في الحديث لا يستلزم بقاؤهم على الردة، بل جاؤوا تائبين كما وضّح ذلك ابن بطال بقوله: (كانوا ارتدوا ثم تابوا فأوفدوا رسلهم...)، ويوضحه ابن تيمية بقوله: (بل لما قاتلا أهل الردة وأعادوهم إلى الإسلام).

6) استنبط الإمام الشوكاني من الأثر؛ جواز مصالحة المرتدين على أخذ أسلحتهم وخيلهم وردّ ما أصابوه من المسلمين، وقد يفهم البعض من ذلك أن الإمام يقول بجواز مصالحة المرتدين بكف القتال عنهم والدخول في حكمهم - كما هو مطروح اليوم في السّاحة -

وهذا الفهم مردود بما يلي:

---

[147] فتح الباري: 210/13 - 211.
[148] نيل الأوطار: 22/8.

– ما سبق ذكره من رسالة أبي بكر لأهل الردّة؛ وأن لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل والقتال، وكلام ابن بطال وابن تيمية ما يلزم أن لا يعقد لهم صلح يقيهم على ردتهم.

– ما ورد في نص مصالحة خالد بن الوليد رضي الله عنه لبني حنيفة: (هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد ابن مجاعة مرارة وسلمة بن عمير وفلان، قاضاهم على الصفراء والبيضاء ونصف السبي والحلقة والكراع وحائط من كل قرية ومزرعة، على أن يسلموا، ثم أنتم آمنون بأمان الله)[149]

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: (ودعاهم خالد إلى الإسلام فأسلموا جميعا ورجعوا إلى الحق)[150].

– الإمام الشوكاني أورد الأثر في آخر أبواب أحكام الردة والإسلام، تحت باب "حكم أموال المرتدين وجناياتهم"، وكان قد وضع في أول الأبواب "باب قتل المرتد " وأورد فيه حديث: (من بدّل دينه فاقتلوه)، ممّا يدل على حكم الشوكاني في المرتد هو القتل أو الإسلام، واستنباطه المشار إليه إنما هو بعد إسلامهم...

7) سيرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع المرتدين؛ محلّ إجماع الصحابة رضي الله عنهم، فقد تبايعوا على رأي أبي بكر في حربهم، وعلى قراره فيهم حين جاءوا يسألون الصّلح بعد المشورة وقول عمر رضي الله عنه.

بطلان مهادنة المرتدين:

قال الشيخ أيمن الظواهري: (يحاول البعض تمرير مسألة الحوار مع الطواغيت تحت اسم الهدنة مع الكفار وهذا جائز لمصلحة الإسلام؛ وفي هذا مغالطة فقهية يا أخي المسلم، فالفقهاء فرّقوا بين أصناف الكفار في جواز المهادنة والصّلح، فالكفار إمّا أنهم كفار أصليون – أي لم يكونوا مسلمين قبل – كأهل الكتاب والوثنيين، وإمّا مرتدون – وهم من ثبت لهم حكم الإسلام من قبل – والحكام الذين نتحدث عنهم يدخلون تحت الصّنف الثاني، فهم مرتدون، والمرتد لا يهادن بخلاف الكافر الأصلي)[151].

إليك بعض أقوال أهل العلم في المسألة:

[149] تاريخ الطبري: 298/3.
[150] البداية والنهاية: 325/6.
[151] الحوار مع الطواغيت مقبرة الدعوة والدعاة.

– قال ابن تيمية: (وهؤلاء أعظم جرما عند الله وعند رسوله والمؤمنين من الكافر الأصلي من وجوه كثيرة فإن هؤلاء – المرتدين – يجب قتالهم حتما ما لم يرجعوا إلى ما خرجوا عنه، لا يجوز أن يعقد لهم ذمة ولا هدنة ولا أمان)[152].

وقال: (وقد استقرت السنّة بأن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلي من وجوه متعددة منها أن المرتد يقتل بكل حال ولا يضرب عليه جزية ولا تعقد له ذمّة بخلاف الكافر الأصلي... إلى غير ذلك من الأحكام)[153] اهـ.

– قال الماوردي: (لا يجوز إقرار المرتد على ردّته بجزية ولا عهد)[154].

وقال: (وأمّا ما تفارق به – أي دار الردّة – دار الحرب – أي الكفار الأصليين – فمن أربعة أوجه: أحدها؛ أنه يجوز أن يهادنوا على الموادعة في ديارهم ويجوز أن يهادن أهل الحرب، والثاني؛ أنه لا يجوز أن يصالحوا على مال يقرون به على ردتهم ويجوز أن يصالح أهل الحرب)[155] اهـ، وللقاضي أبي يعلي مثله[156].

– قال الغزالي في "فضائح الباطنية": (والقول الوجيز فيه أنه يسلك بهم – أي الزنادقة الباطنية – مسلك المرتدين في النظر في الدم والمال والنكاح ونفوذ الأقضية وقضاء العبادات، أما الأرواح فلا يسلك بهم مسلك الكافر الأصلي، إذ يتخير الإمام في الكافر الأصلي بين أربع خصال: بين المن والفداء والاسترقاق والقتل، ولا يتخير في حق المرتد، بل لا سبيل إلى استرقاقهم ولا إلى قبول الجزية منهم ولا إلى المن والفداء، وإنما الواجب قتلهم وتطهر وجه الأرض منهم)[157] اهـ.

– قال أبو الليث السمرقندي في "تحفة الفقهاء"[158]: (إن أخذ الجزية وعقد الذمة مشروع في حق جميع الكفار إلا مشركي العرب، والمرتدين، فإنه لا يقبل منهم الجزية، كما لم يشرع فيهم الاسترقاق)[159] اهـ.

---

[152] 414/28.
[153] ص 534.
[154] الأحكام السلطانية: 17.
[155] ص 57.
[156] ص 53.
[157] ص 95.
[158] وهو متن كتاب "بدائع الصنائع" للكاساني.
[159] 207/3.

– قال القرطبي: (وكذلك مذهب مالك، فإنه رأى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجحد، عربيا، أو عجميا، تغلبيا أو قرشيا كائنا من كان، إلا المرتد)[160] اهـ.

رأي الأحناف: قال الكاساني في "بدائع الصنائع": (ويجوز موادعة المرتدين إذا غلبوا على دار من دور الإسلام وخيف منهم ولم تؤمن غائلتهم لما فيه من مصلحة دفع الشر الحاصل ورجاء رجوعهم إلى الإسلام وتوبتهم، ولا يؤخذ منهم على ذلك مال؛ له في ذلك معنى الجزية ولا يجوز أخذ الجزية من المرتدين، فإن أخذ منهم شيء لا يرد له، لأنه مال غير معصوم، ألا ترى أن أموالهم محل الاستيلاء كأموال أهل الحرب)"[161].

وقال: (قال تعالى: {تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ}، قيل إن الآية نزلت في أهل الردّة من بني حنيفة، ولأن العقد في حق المرتد لا يقع وسيلة إلى الإسلام، لأن الظاهر أنه لا ينتقل عن دين الإسلام بعد ما عرف محاسنه وشرائعه المحمودة في العقول إلا لسوء اختياره وشؤم طبعه، فيقع اليأس من فلاحه، فلا يكون عقد الذمة وقبول الجزية في حقه وسيلة إلى الإسلام)[162].

1) الإمام الكاساني من أئمة الحنفية؛ يجيز موادعة المرتدين إذا غلبوا على دار الإسلام وخيف منهم، دفعا للشر الحاصل، ورجاء رجوعهم إلى الإسلام.

2) الإمام الكاساني يقرر بظاهر الآية التي نزلت في أهل الردة: أن معاملتهم؛ القتال أو الإسلام وهذا الأصل عنده.

3) الإمام الكاساني؛ يقرر أن عقد الموادعة في حق المرتدين لا يقع وسيلة إلى الإسلام، لأنهم كفروا بعد إسلامهم عن بصيرة وعلم بما كفروا به.

بالنظر إلى الواقع – أحد ركني الفتوى – نتفق مع الإمام؛ على أن العقد لا يقع وسيلة إلى إسلامهم – إلا أن يشاء الله – وأن مهادنتهم لا تكف شرهم المستطير على الإسلام والمسلمين، فهم اليوم في حرب عالمية ضد الإسلام، ماضون في طمس كل ما له صلة بالإسلام، نقول هذا مع ما سبق ذكره من كلام ابن تيمية أن قتال الدفع فرض عين لا يجوز فيه الانصراف، خصوصا إذا كان يفضي إلى استباحة المال والحريم، وقول الكاساني مرجوح بإجماع الصحابة وأقوال أهل العلم السالفة، والله أعلم.

---

[160] الجامع لأحكام القرآن: 110/8.
[161] بدائع الصنائع: 109/7.
[162] ص 111.

ممّا سبق تعلم يا أخي؛ أن مهادنة المرتدين أو مصالحتهم لا تجوز شرعا، ولا تجر نفعا، من كان قادرا على قتالهم فليقاتل ومن عجز فليعد القوة، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}.

وقال ابن تيمية: (كما يجب الاستعداد للجهاد بإعداد القوة ورباط الخيل في وقت سقوطه للعجز فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)[163].

4) قال الشيخ أبو قتادة الفلسطيني فك الله أسره: (ولما علمنا أن حكام بلادنا مرتدون؛ فلا يجوز مصالحة أحد منهم أو مسالمته أو مهادنته تحت دعوى المصلحة، أي أنه لا يجوز لجماعات الجهاد أن تداهن أحدا من هؤلاء المرتدين أو تسالمه أو تتعاون معه في قتالها لطائفة الكفر في بلدها)[164].

قال الشيخ أبو قتادة الفلسطيني: (هبات حركات الردة على أمتنا ليست جديدة في هذا العصر، وليست هي أول مرة، بل هي قديمة قدم الإسلام، ومعالجات الأمّة من علماء وقادة لها واضحة المعالم دقيقة التفاصيل، ففي آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم أطل مسيلمة برأسه، وزعم نزول الوحي عليه، فسماه رسول صلى الله عليه وسلم: مسيلمة الكذاب، وظهر كذلك مرتد آخر في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وغلب على أهل اليمن وهو الأسود العنسي، قام له رجل صالح يسمى فيروز الديلمي مع جماعة من جند الإسلام فقتلوه في حركة عسكرية انقلابية، وأعادوا اليمن إلى حظيرة الإسلام، أما أمر مسيلمة فقد امتد أمره، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وشاعت حركة الردة حتى عم شرها الجزيرة العربية... وعاد الناس إلى ما كانوا عليه من أمر الجاهلية... وظن ضعاف الإيمان أن سيف الإسلام قد نبت شفرته بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغلبت الردة على الجزيرة العربية، ولم يبق على الإسلام إلا مكة والطائف وجواثى بالبحرين والمدينة، فقام لها أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم حق القيام، ونشطوا في صدها ومنعها، ورفعوا لها رأس الجد والجهاد، ورؤي من أبي بكر رضي الله عنه صلابة لم تعهد فيه من قبل... وكانت وصاياه للجند تدور حول جز الرقاب بلا هوادة أو تباطؤ... ودارت رحى الحرب شاملة كل الجزيرة، ولم يجزع أحد من أصحاب رسول الله منها، بل كانوا رجالها وأهلها، حتى عادت الجزيرة إلى حكم الإسلام وسلطانه.

وفي غفلة من أهل الحق وضعفهم غلب قوم من المرتدين على المغرب، ثم على مصر، وهم الاسماعيليون العبيديون، فقد تأسست الدولة العبيدية في المغرب، وقوي شأنها، فبدلوا

[163] المجموع: 259/28.
[164] الجهاد والإجتهاد.

الشريعة، وغيروا الأحكام، فقام لها جهابذة الإسلام في المغرب من علماء المالكية الأفذاذ، فقاتلوهم بلا تردد، وعندما قام أبو يزيد الخارجي، وكان على مذهب الإباضية، تردد بعض الناس في قتال المرتدين تحت راية الخوارج، فكان نداء الأئمة العلماء يوم ذاك: نقاتل تحت راية من آمن بالله ضد راية من كفر بالله... وحركات الردة لا تفتأ تطل برأسها وتنشئ لها دولا ومعاقلا، فالإسماعيليون أقاموا لأنفسهم دولة في اليمن، قضى عليها صلاح الدين... وليس هذا فحسب بل حركات الردة التي غزت أمتنا تحتاج إلى دراسة شاملة، تهيئ قبول المسلم لهذه الظاهرة، وأنها ليست بالجديدة، وأن معالجات أهل العلم لهذه الظاهرة ليست بالأمر المحدث الجديد)[165] اهـ.

تنبيه وإرشاد:

في خضم المعركة مع المرتدين مع كثرة الضغط والضجيج حول المصالحة؛ حين يطّلع المجاهد على طريقة الصحابة وأقوال أهل العلم حول هذه المسألة، أظنه يرتاح للطريق الذي اختاره.

"فإن موافقة العمل – أي للدليل – من أوجه الرجحان فإن موافقته شاهد للدليل الذي استدل به ومصدق له... بخلاف ما خالفه؛ فإن المخالفة موهنة له أو مكذبة، وأيضا فإن العمل مخلّص للأدلة من شوائب المحامل المقدرة الموهنة... فلهذا كله يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فَهم منه الأولون وما كانوا عليه في العمل به فهو أحرى بالصواب وأقوم في العلم والعمل"[166].

لقد سبق في صدر الإسلام ردّة قبائل عن الإسلام ومنع قبائل للزكاة، وقد رأينا كيف تعامل معهم الصحابة رضي الله عنهم؛ فليكن لك فيهم أسوة حسنة، "فإن نصوص الكتاب والسنة الذين هما دعوة محمد صلى الله عليه وسلم تتناول عموم الخلق بالعموم اللفظي وبالعموم المعنوي، وعهود الله في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تتناول آخر هذه الأمة كما نالت أولها، وإنما قصّ الله علينا قصص من قبلنا من الأمم ليكون عبرة لنا فنشبه حالنا بحالهم، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن من المستأخرين شبه بما كان للمؤمن من المستقدمين، ويكون للكافر والمنافق من المستأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المستقدمين، كما قال تعالى لما قصّ قصّة يوسف مفصلة وأجمل ذكر قصص الأنبياء: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ}..."[167].

---

[165] الجهاد والإجتهاد، الفصل الثالث: الجهاد والتغيير، بتصرف.

[166] الموافقات: 3/76 - 77.

[167] المجموع: 28/425.

الهدنة والمصالحة في ميزان الفقه:

بعد أن ذكرنا آنفا؛ أن مصالحة المرتدين لا تجوز، بل الواجب {تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ}، أردت أن أتنزل في الطرح؛ فأفترض جوازها وأعرضها على أقوال الفقهاء، ليتبين لنا أن المصالحة — الهدنة – الشرعية تختلف تماما عمّا يطرحه الطاغوت ويباركه المنهزمون.

الهدنة لغة؛ السكون بعد الهيج، هدن أي سكن.

واصطلاحا؛ قال ابن قدامة: (يعقد لأهل الحرب عقدا على ترك القتال مدّة بعوض وبغير عوض، وتسمى مهادنة وموادعة ومعاهدة، وذلك جائز)[168].

وقال ابن القيم: (... أهل الهدنة فهم صالحوا المسلمين على أن يكونوا في دارهم، سواء كان الصلح على مال أو غير مال، لا تجري عليهم أحكام الإسلام كما تجري على أهل الذمة، لكن عليهم الكف عن محاربة المسلمين، وهؤلاء يسمّون أهل العهود وأهل الصلح وأهل الهدنة) اهـ.

وقال ابن رشد في "بداية المجتهد": (أمّا هل تجوز المهادنة؟ فإن قوما أجازوها ابتداء... إذا رأى ذلك الإمام مصلحة للمسلمين، وقوم لم يجيزوها إلا لمكان الضرورة).

وجاء في "الثمرات الجياد": (وعلى هذا الجواز جمهور العلماء من المالكية والشافعية والحنفية، إلا أن الشافعي اشترط مدة عشر سنين لا تزيد) اهـ.

والعلماء حين قالوا بالجواز وضعوا لذلك شروطا، وإليك بعض أقوالهم:

قال ابن قدامة: (ولأنه قد يكون بالمسلمين ضعف فيها هادنهم حتّى يقوى المسلمون ولا يجوز ذلك إلا بالنظر للمسلمين إمّا أن يكون منهم ضعف عن قتالهم وإما أن يطمع في إسلامهم بهدنتهم أو أدائهم الجزية والتزامهم أحكام الملة، أو غير ذلك من المصالح، إذا ثبت هذا فإنه لا تجوز المهادنة مطلقا من غير تقدير مدة لأنه يفضي إلى ترك الجهاد بالكلية)[169].

قال ابن حجر: (في تفسير قوله تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، هذه الآية دالة على مشروعية المصالحة مع المشركين)، ثم قال: (ومعنى الشرط في الآية؛

---

[168] المغني: 517/10.
[169] المغني: 517/10.

الأمر بالصلح مقيد بما إذا كان الأحفظ للإسلام المصالحة، أمّا إذا كان الإسلام ظاهرا على الكفر ولم تظهر المصلحة في المصالحة فلا)[170].

وقال صاحب "المجموع بشرح المهذب": (فإن لم يكن في الهدنة مصلحة؛ لم يجز عقدها لقوله تعالى: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ}، قال ابن كثير: "ولا تهنوا أي تضعفوا عن قتال الأعداء")[171]اهـ.

قال صديق حسن خان: (ويجوز مهادنة الكفار وملوكهم وقبائلهم؛ إذا اجتهد الإمام في ذلك، ولم يخافوا من الكفار مكيدة، ولو بشرط، على أجل أكثره عشر سنين)[172].

وقال الشافعي: (لا تجوز مهادنة المشركين أكثر من عشر سنين على ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية، فإن هودن المشركون أكثر من ذلك فهي منتقضة، لأن الأصل فرض قتال المشركين حتّى يؤمنوا أو يعطوا الجزية)[173].

وقال أحمد بن أحمد بن المختار الجكني الشنقيطي في "مذاهب الجليل من أدلة خليل": ("وللإمام المهادنة والمصالحة"؛ ويجوز للإمام أو نائبه فقط المهادنة، وهي صلح الحربي على ترك قتاله مدة ليس هو فيها تحت حكم الإسلام، فخرج الأمان والاستئمان، ومن شرط المهادنة؛ خلوها من شرط فاسد، كشرط ترك مسلم في أيديهم)[174] اهـ.

وقال ابن قدامة عن شروط المهادنة: (فصل في شروط الهدنة: تنقسم إلى قسمين: صحيح وفاسد...)، قال: (والثاني شرط فاسد، مثل أن يشترط رد النساء أو مهورهن أو رد سلاحهم أو إعطائهم شيئا من سلاحنا أو من آلات الحرب)، ثم قال: (... ولا يجوز ذلك – أي الهدنة – إلا وجه النظر للمسلمين وتحصيل المصلحة... ولا يجوز عقدها إلا على مدة معلومة، لأن مهادنتهم مطلقا تفضي إلى تعطيل الجهاد بالكلية لكونها تقتضي التأبيد فلم يجز ذلك... وإذا قال: هادنتكم ما شئتم، لم تصح، لأنه جعل الكفار متحكمين على المسلمين)[175].

وجاء في "مغني المحتاج": ("وكذا شرط فاسد"؛ أي خلو الهدنة من كل شرط فاسد، "على الصحيح"؛ المنصوص، "بأن شرط منع فك أسرانا"؛ منهم، "أو ترك مالنا"؛ الذي

[170] فتح الباري: 275/6.
[171] المجموع بشرح المهذب: 439/19.
[172] الروضة: 353/2
[173] تفسير القرطبي.
[174] 338/4
[175] المغني: 378/10.

استولوا عليه... أو نحو ذلك من الشروط الفاسدة... والأصل في منع ما ذكر قوله تعالى: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ}، وفي اشتراط ذلك إهانة ينبو الإسلام عنها)[176].

قال ابن قدامة: (فهذه كلها شروط فاسدة، لا يجوز الوفاء بها، وهل يفسد العقد بها؟ على وجهين، بناء على الشروط الفاسدة في البيع[177])[178].

مِمّا سلف نقله عن الفقهاء يمكن استخلاص ما يلي:

1) المعنى الاصطلاحي للهدنة والمصالحة: توقيف القتال بين المقاتلين مع بقاء كل طرف بحدوده وسيادته.

2) لا يجوز عقد الهدنة مع الكفار إلا مع الضرورة — الضعف - وبالنظر لمصلحة الإسلام والمسلمين، مع اشتراط أن لا يخافوا من الكفار مكيدة.

3) لا يجوز عقدها مؤبدة لأنها تفضي إلى ترك الجهاد بالكلية، والأصل فرض قتالهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، كما لا يجوز جعلهم متحكمين في المسلمين بقوله "هادنتكم ما شئتم"[179].

4) لا يجوز عقد الهدنة والمصالحة مع شرط فاسد، كأن نترك مسلم بأيديهم أو منع فك أسرانا أو إعطائهم شيء من سلاحنا، ففي ذلك ومثله إهانة الإسلام وأهله، والإسلام يعلوا ولا يعلى عليه.

5) لا يجوز الوفاء بالشرط الفاسد، كما أن العقد يبطل به على أحد الوجهين.

من النتائج السابقة؛ يتبين لك أن الذين رضوا بصفقة السلم المخزية عقدهم باطل من وجهين:

الأول: مخالفة الحكم الأصلي، وهو عدم جواز مهادنة المرتدين وإقرارهم على ردتهم.

الثاني: احتواء العقد[180] على شروط باطلة يحرم الوفاء بها، وتجعل العقد باطلا من أساسه.

---

[176] مغني المحتاج: 261/4.
[177] نصّ الحجاوي أن الشرط الفاسد يفسد عقد الذمة، الإقناع: 132/2.
[178] المغني: 526/10.
[179] وما هو استسلام وقبول جري أحكام الكفر عليهم كحال من يسلم نفسه لحكم الطواغيت اليوم يفعلون به ما يشاؤون.

واعلم أن العلماء حين وضعوا شروطا لمهادنة الكافر الأصلي – لا المرتد –؛ يجب مراعاة تلك الشروط، وإلا كان المستفتي متبعا لهواه... قال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}.

أخي المسلم:

بعد ما ذكرت لك هدي الصحابة رضي الله عنه في قتال المرتدين وأقوال أهل العلم في مسألة هدنتهم، وذكرت لك شروط أهل العلم لجواز مهادنة من تجوز مهادنته من الكفار؛ يتبين لك بطلان ما ينادي به المرتدون والمرجفون من المصالحة، ويتبن لك أيضا مخالفة من استجاب للشرع والسياسة، وأنها استجابة لا تنبع من القناعة الشرعية والحنكة السياسية، وإنما عن هزيمة نفسية وقابلية للسلم المخزية.

والله لا يهدي كيد الخائنين.

[180] إذا سلمنا أنه عقد والعقد يكون بين طرفين متكافئين.

الفصل الرابع
المساومات؛ سنّة في طريق الدّعوة والدّعاة

مقدمات هامّة:

*   *   *

- المقدمة الأولى؛ ضرورة استبانة سبيل المجرمين:

"لا يليق بمن يواجه أعداء الدين ويسعى لتقويض باطلهم؛ أن يهمل معرفة حكم الله فيهم قبل ذلك، فيكون أعمشا في نظرته إليهم يحسن الظن بهم أو يظنهم داخل دائرة الدّين... ومن العلم والفهم الذي يجب أن يتزود به أصحاب هذه الطائفة القائمة بأمر الله ويعينهم على عدم التضرر بالأعداء والمخالفين، استبانة سبيل المجرمين فقد فصّل الله تعالى لنا الآيات البيّنات لأجل هذا المقصد العظيم... {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}"[181].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (دين النبي صلى الله عليه وسلم؛ التوحيد، وهو معرفة لا إله إلا الله محمّد رسول الله والعمل بمقتضاهما، فإن قيل: كل النّاس يقولونها؟! قيل: منهم من يقولها ويحسب معناها أنه لا يخلق إلا الله ولا يرزق إلا الله، وأشباه ذلك ومنهم من لا يفهم معناها، ومنهم من لا يعمل بمقتضاها، ومنهم من لا يعقل حقيقتها، وأعجب من ذلك من عرفها من وجه، وعاداها وأهلها من وجه، وأعجب منه من أحبها وانتسب إلى أهلها... ولم يفرق بين أوليائها وأعدائها، يا سبحان الله أتكون طائفتان مختلفتان في دين واحد وكلهم على الحق؟! كلا والله فماذا بعد الحق إلا الضلال) اهـ.

وفي هذا يقول ابن القيم: (قال تعالى: {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}، وقال: {وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}، والله تعالى قد بيّن في كتابه سبيل المؤمنين مفصلة وسبيل المجرمين مفصلة وعاقبة هؤلاء مفصلة وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء، والأسباب التي خذل بها هؤلاء، وجلّى سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبيّنهما غاية البيان.

---

[181] وقفات مع ثمرات الجهاد: ص13.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية فاستبانت لهم السبيل فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للنّاس وأنصحهم لهم وهم الأدلاّء الهداة.

وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة فهم نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصلة ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى، وصراط الله المستقيم فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام ومن الشرك إلى التوحيد ومن الجهل إلى العلم ومن الغي إلى الرشاد، فعرفوا مقدار ما نالوه، فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه ونفرة وبغضا لما انتقلوا عنه وكانوا أحب النّاس في التوحيد والإيمان والإسلام وأبغض النّاس في ضده عالمين بالسبيل على التفصيل.

وأمّا من جاء بعد الصحابة فمنهم من نشأ في الإسلام غير عالم تفصيل ضده فالتبس عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين، فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية"، هذا من كمال علم عمر رضي الله عنه.

فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها – وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم – فإنه من الجاهلية فإنها منسوبة إلى الجهل، وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل.

فمن لم يعرف سبيل المجرمين، ولم تستبن له؛ أوشك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين، كما وقع في هذه الأمّة من أمور كثيرة في باب الإعتقاد والعلم والعمل هي من سبيل المجرمين والكفار أدخلها من لا يعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين ودعا إليها وكفّر من خالفها واستحل منه ما حرمه الله ورسوله، كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم...).

إلى أن قال: (... والمقصود أن الله سبحانه يحب أن تعرف سبيل أعدائه لتجتنب وتبغض كما يحب أن تعرف سبيل أوليائه لتحب وتسلك وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا الله)[182] اهـ.

[182] الفوائد باختصار يسير: ص 108 - 111.

"ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم... أنها تتمثل في وجود أقوام من النّاس من سلالات المسلمين في أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام، يسيطر عليها دين الله وتحكمها شريعته، ثم إذا هذه الأرض وإذا هذه الأقوام تهجر الإسلام حقيقة وتعلنه اسما، إذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادا وواقعا، وإن ظنت أنها تدين بالإسلام...

فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الإعتقاد بأن الله وحده الذي يتلقّى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شؤون حياتهم كلّها... وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله بهذا المدلول فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد، كائنا ما كان اسمه ولقبه ونسبه، وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله بهذا المدلول، فهي أرض لم تدن بدين الله وتدخل في الإسلام بعد، في الأرض اليوم أقوام من النّاس أسماؤهم أسماء المسلمين وهم من سلالات المسلمين، وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دار إسلام... ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا الله بذلك المدلول، ولا الأوطان اليوم تدين بمقتضى هذا المدلول...

وهذا أشق ما تواجه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام، أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين وطريق المشركين، واختلاط الشارات والعناوين والتباس الأسماء والصفات والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق...

ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة، فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا حتّى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام... تهمة تكفير المسلمين ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر المرجع لعرف النّاس واصطلاحاتهم لا إلى قول الله وإلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن الإسلام ليس بهذا التمييع الذي يظنه المخدوعون... الإسلام بيّن شهادة أن لا إله إلا الله بذلك المدلول، فمن علم يشهد حقا على هذا النحو، ومن لم يُقمها في الحياة على هذا النحو فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين المجرمين"[183].

ف "استبانة سبيل المجرمين؛ هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات، ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف الكفار والمجرمين وفي أساليبهم المتعددة والمتنوعة ترتد غبشا وشبهة

[183] الظلال: 1106.

في موقف المؤمنين، فهما صفحتان متقابلتان، وطريقان مفترقان، ولا بد من وضوح الألوان والخطوط"[184].



المقدمة الثانية؛ البراءة من الطواغيت ومعاداتهم؛ ركن التوحيد:

اعلم أن إيمان المرء لا يصح إلا بالكفر بالطاغوت مع الإيمان بالله، فمن آمن بالله ولم يكفر بالطاغوت ولم يتبرأ منه؛ لم يصح إيمانه، وذلك لقوله تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا}.

ويدخل في مسمّى الطاغوت؛ الحكام المرتدون وأنظمتهم الكفرية، هذه يجب على المسلمين الكفر بها والبراءة منها، لا التفاوض معها والإعتراف بشرعيتها، مما يناقض التوحيد.

ونحن بحول الله وقوته؛ نعلن كفرنا بهذه الطواغيت وبراءتنا منها، وندعو المسلمين إلى الإستمساك بهذه العروة الوثقى التي هي ملة إبراهيم عليه السلام وسائر الأنبياء، كما قال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}.

يقول الشيخ حمد بن عتيق النجدي: (وها هنا نكتة بديعة في قوله: {إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ}، وهي أن الله تعالى قدّم البراءة من المشركين العابدين غير الله على

---

[184] عوائق الإنطلاقة الكبرى، المصري.

فائدة: ومن استبانة سبيل المجرمين معرفة نفسيتهم التي ينطلقون منها وقد أشار الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه "ردة ولا أبا بكر لها" إلى حقيقة نفسية هؤلاء المرتدين، وأنها أعتى نفسية مرت على وجه التاريخ، بل هي اقتبست معالمها من نفسية الشيطان ذلك أنه لما رأى نفسه قد حكم الله تعالى عليه الخلود في جهنم فإنه طلب من الله تعالى أن يمهله إلى نهاية الدنيا حتى يفتن كثيرا من الناس فيذهب بهم معه إلى جهنم، فإنه نقم على الناس طهرهم وعفافهم وإيمانهم، وكذا المرتد فإنه ينقم على الناس إسلامهم، ... يرى نفسه قد ضعف أمام الشهوة، إما شهوة المال أو شهوة المنصب أو شهوة النساء فيرى نفسه حقيرا ذليلا وهو يرى أمامه شابا مسلما قد ترفع عن هذه الشهوات وضربها بقدمه واستمسك بدينه فينقم عليه هذه الفضيلة ويستصغر نفسه أمامه فبدل أن يؤوب إلى رشده ويهتدي إلى رحمة الله فإنه لنفسه الخبيثة يحقد على هذا الشاب لأنه يذكره بضعفه وعجزه... ولذلك عندما تسمع أو تقرأ هذه القصص الحقيقية من تعذيب المرتدين للمسلمين تكاد لهولها أن تدخل في عالم الخيال والخرافات، لأن هذا النوع من البشر ليس له مثيل في الظلم والكفر والعدوان [الجهاد والإجتهاد بتصرف].

البراءة من الأوثان المعبودة من دون الله، لأن الأول أهم من الثاني، فإنه قد يتبرأ من الأوثان ولا يتبرأ ممن عبدها، فلا يكون آتيا بالواجب عليه، وأمّا إذا تبرأ من المشركين فإن هذا يستلزم البراءة من معبوداتهم، وهذا كقوله تعالى: {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، فقدّم اعتزالهم على اعتزال معبوداتهم... فعليك بهذه النكت فإنها تفتح بابا إلى عداوة أعداء الله فكم من إنسان لا يقع منه الشرك ولكنه لا يعادي أهله فلا يكون مسلما بذلك إذ ترك دين جميع المرسلين... ثم قال: {كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}، فقوله: {بدا} أي ظهر وبان، وتأمل تقديم العداوة على البغضاء لأن الأولى أهم من الثانية، فإن الإنسان قد يبغض المشركين ولا يعاديهم، فلا يكون آتيا بالواجب عليه حتى يحصل منه العداوة والبغضاء ولا بد أيضا أن تكون العداوة والبغضاء باديتين ظاهرتين بيّنتين، واعلم أنه وإن كانت البغضاء متعلقة بالقلب؛ فإنها لا تنفع حتى تظهر أثارها وتتبين علاماتها، ولا تكون كذلك حتّى تقترن بالعداوة والمقاطعة، فحينئذ تكون العداوة والبغضاء ظاهرتين، وأمّا إذا وجدت الموالاة والمواصلة؛ فإن ذلك يدل على عدم البغضاء، فعليك بتأمل هذا الموضع فإنه يجلوا عنك شبهات كثيرة)[185].

"هذه يا أخي هي ملة إبراهيم عليه السلام، وقال تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ}، واتباعك لهذه الملّة يوجب عليك:

أ) البراءة من الحكام الكافرين وأعوانهم.

ب) البراءة من قوانينهم الوضعية، بما فيها الإشتراكية والديمقراطية وسائر كفرهم.

ج) إظهار العداوة لهم، وهذا يكون بكشف كفرهم للناس وتسفيه رأيهم ودينهم الكفري، وحض النّاس على عداوتهم وكراهيتهم وقتالهم حتى يكون الدين كله لله، فأين هذه البراءة يا أخي من الحوار مع الطواغيت ومدّ الجسور معهم؟! لا شك أن هذا الحوار يناقض التوحيد مناقضة ثابتة"[186].

* * *

المقدمة الثالثة؛ التحذير من التقليد الأعمى:

185 مجموعة التوحيد: ص376 - 375، دار الفكر.

186 نقلا عن الحوار مع الطغاة مقبرة الدعوة والدّعاة، أيمن الظواهري.

كما أنّ من أصول أهل السنّة المتفق عليها؛ أن أي إنسان – مهما علا كعبه وشأنه وفضله – يخطئ ويصيب، يؤخذ منه ويرد عليه، عدا النبي صلى الله عليه وسلم.

كما من أصول أهل السنة؛ أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإنما الطاعة في المعروف –كما في الحديث الصحيح –

وعليه؛ فتقليد الآباء والأسلاف والكبراء بغير دليل وبخلاف الدليل الشرعي هو من أسباب كفر الكافرين وضلال الضالين من الأولين والآخرين، قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا}، والباعث على هذا التقليد هو التعصب للكبراء مع تعظيمهم وعدم تصور وقوع الخطأ منهم.

قال ابن هبيرة: (إنه من مكائد الشيطان أن يقيم أوثانا في المعنى تعبد من دون الله، مثل أن يتبين له الحق فيقول ليس هذا في مذهبنا، تقليدا لمعظم عنده قد قدّمه على الحق).

والمقصد من هذا في الموضوع الذي نحن بصدده؛ هو تحذير المسلمين من متابعة بعض القيادات الإسلامية في تحريفها للدين وتمييع معالمه إرضاء للطواغيت، ويجب على كل مسلم أن يقدم موالاة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على موالاة النّاس، وتكون الثانية تابعة للأولى، كما قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا}، وديننا نهانا نهيا صريحا؛ أن نسلك مسلك أولئك الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله فأطاعوهم واتبعوهم في الباطل، كما قال تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}[187].

* * *

المقدمة الرابعة؛ تيقن غاية الحرب:

والمسلم لا بد أن يدرك أساس صراعه مع الكافرين والغاية من جهاده وقتاله، فأي جيش – ولو كان كافرا – لا بد من عقيدة قتالية على أساسها يقاتل الآخرين... وهذه العقيدة تصب في هدف واحد، وهو أن يؤمن الجندي المقاتل أنه على الحق، وعدوه على الباطل يجب أن يقاتله.

[187] انظر الحوار مع الطغاة للظواهري، ومبادرة الجماعة المصرية إعتراف بالخطأ أم انهيار وسقوط لأبي بصير.

وحالة الحرب من وجهة نظر السياسة الإستراتيجية؛ هي حالة عارضة، وهي بمثابة تصحيح لأوضاع عجزت سياسة السلم عن تقويمها وتصحيحها، فهي عادة آخر الأوراق بيد السياسة.

وقد بيّن لنا القرآن الكريم غاية الحرب فقال: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ}.

وسبق ذكر تخيير أبي بكر الصّديق رضي الله عنه لوفد بزاخة بين الحرب المجلية والسّلم المخزية، "فمرحلة الحرب المجلية أو السّلم المخزية؛ ستأتي بإذن الله، وإذا دخلناها وفي عقولنا شك في شرعية استهداف العدو، فهي بداية لأن نعطي نحن العدوّ؛ السلم المخزية... إن الجماعة التي تطلب من أفرادها حمل السّلاح ثم تحمل نتائج هذا المشروع ولم تقنع أفرادها أو لن تتبنى هي؛ أن الخصم الذي تقاتله هو كافر، وأن المشروع سينتهي بأحد الأمرين؛ {تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ} - كما قال تعالى في سورة الفتح - هي جماعة ستقتنع في النهاية بأنصاف الحلول ثم الجلوس على موائد المفاوضات الهزيلة، وحينها تحصل الهزيمة عن طريق أنصاف الحلول السلميّة، والمصالحة، نعم يوجد حل سلمي يمكن أن نقبله ولكن هو فقط توبة من الطاغوت واستسلامهم"[188].



المقدمة الخامسة؛ العبرة بالخواتيم:

اعلموا؛ أن العبرة بالخواتم، وبما يختم به على المرء، فالمرء قد ينقلب على عقبيه ويرتد بعد إسلامه، وقد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقوام ثم ارتدوا بعد وفاته.

فكم من عبد طال عهده مع العبادة والتوحيد والصبر على البلاء ثم فتن قبل موته، وختم له بعمل طالح، فخسر الدنيا والآخرة، كما في قصة الذي أتاه الله تعالى الآيات والكرامات فانسلخ منها بخاتمة سوء فأخلد إلى الأرض واتبع هواه؛ {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}.

[188] الحرب المجلية، لأبي بكر ناجي.

وفي الحديث: (فوالله الذي لا إله غيره؛ إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)[189].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تعجبوا بعمل أحد حتى تنظروا بما يختم له، فإن العامل يعمل زمانا من دهره أو برهة من دهره بعمل صالح، لو مات عليه دخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملا سيئا، وأن العبد ليعمل زمانا من دهره بعمل سيئ، لو مات عليه دخل النار، ثم يتحول فيعمل عملا صالحا، وإذا أراد الله بعبد خيرا استعمله قبل موته فوفّقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه)[190].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالخواتيم)[191].

لذلك أخي فالأحياء لا تؤمن عليهم الفتنة... العبرة بالخاتمة... لا بد من المسير وإكمال الطريق إلى نهايته، ونهايته عندما ترفع الروح إلى بارئها وهي على جادة التوحيد والإستقامة والإيمان[192].

{وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}؛ إن لله خلق الخلق وأمرهم جميعا بعبادته أمرا شرعيا على ألسنة رسله، ومنهم من آمن ومنهم من كفر... ثم سلّط سبحانه الفريقين بعضهم على بعض، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ}، فسلط الله سبحانه الكافرين على المؤمنين – بالأمر القدري – يفتنونهم ويقاتلونهم، وسلط سبحانه المؤمنين على الكافرين – بالأمر الشرعي – يدعونهم إلى الهدى، فمن أبى قوتل على هذا لتكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله، وحتّى لا يعبد في الأرض إلا الله وحده لا شريك له.

فصراع المؤمن ضد الكافر إنما هو تحقيق "لا إله إلا الله"، فالجهاد وسيلة لتحقيق التوحيد... وبانقسام الخلق إلى مؤمن وكافر؛ عقدت العداوة بينهما.

والآيات في سنة الإبتلاء كثيرة، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}، وقال كذلك {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا}.

وصور معاداة الكافرين للمؤمنين لا تتغير في مضمونها بتغير الرسل والأمم والأزمان، ولذلك قال تعالى: {مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ}، ومن صور معاداة

---

[189] متفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[190] رواه أحمد عن أنس رضي الله عنه، قال الألباني: إسناده صحيح.

[191] متفق عليه.

[192] الحوار مع الطغاة، ومبادرة الجماعة المصرية، لأبي بصير.

الكافرين للمؤمنين التكذيب، الإستهزاء والسخرية، رمي المؤمنين بالجنون، رميهم بأنهم يطلبون الرئاسة والحكم، رميهم بالإفساد في الأرض وتبديل الدين، احتقار المؤمنين لفقرهم وضعفهم والتشاؤم بهم وأن مبادئهم تأتي بالشر والفقر والتفرّق، الجدال بالباطل لرد الحق وتضليل العامة وتحريضهم ضد المؤمنين، محاولة فتنة المؤمنين عن دينهم بالتجويع والتعذيب والقتل، المساومة على الدين، قال تعالى: {وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ}.

والكافرون لا يطلبون من المؤمنين التنازل عن بعض الحق، إلا لمرحلة مؤقتة، فهم لا يرضون من المؤمنين إلا بالتنازل الكامل عن الحق، ومعاداة الكافرين للمؤمنين لا تنقطع بالكلية، طالما كان المؤمنون على إيمانهم ولو مع التقصير، قال تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}[193].

قال سيد قطب: (وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر؛ وعلى فتنة المسلمين عن دينهم، بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم، وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل... إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين؛ ولأعداء الجماعة المسلمة في كل حين إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم، فهو من القوة ومن المتانة بحيث يخشاه كل مبطل، ويرهبه كل باغ، ويكرهه كل مفسد، إنه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج، ومن منهج قويم، ومن نظام سليم... إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغي والفساد، ومن ثم لا يطيقه المبطلون البغاة المفسدون، ومن ثم يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه، ويردوهم كفارا في صورة من صور الكفر الكثيرة، ذلك أنهم لا يأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم، وفي الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهذا الدين، وتتبع هذا المنهج، وتعيش بهذا النظام، وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته، ولكن الهدف يظل ثابتا... أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا، وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاحا غيره، وكلما كلت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها... والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام، وينبهها إلى الخطر؛ ويدعوها إلى الصبر على الكيد، والصبر على الحرب، وإلا فهي خسارة الدنيا والآخرة؛ والعذاب الذي لا يدفعه عذر ولا مبرر).

فغاية الكفار من عداوة وحرب المؤمنين؛ إمّا قتلهم أو ردهم عن دينهم، قال تعالى: {إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا}؛ ذكروا المحذور من إطلاع غيرهم عليهم وظهورهم عليهم، إنهم بين أمرين؛ إما الرجم بالحجارة فيقتلونهم شر

---

[193] راجع العمدة في إعداد العدة: ص283 - 289.

قتلة لحنقهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتنوهم عن دينهم ويردونهم في ملتهم، وفي هذه الحال لا يفلحون أبدا، بل يخسرون في دينهم ودنياهم وأخراهم...

ومن فوائد الآية: ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد الداعية لبغضه وتركه، وأن هذه هي طريقة المؤمنين[194].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: (فذكر تعالى عن أهل الكهف؛ أنهم ذكروا عن المشركين أنهم إن قهروكم وغلبوكم، فهم بين أمرين: إما أن يرجموكم أي يقتلونكم شر قتلة برجم، وإما أن يعيدوكم في ملتهم ودينهم، {وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا}، أي وإن وافقتموهم على دينهم بعد أن غلبوكم وقهروكم؛ فلن تفلحوا إذا أبدا، فهذا حال من وافقهم بعد أن غلبوه، فكيف بمن وافقهم وراسلهم من بعيد وأجابهم إلى ما طلبوا من غير غلبة ولا إكراه، ومع ذلك يحسبون أنهم مهتدون!)[195] اهـ.

لقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم للإغراء والتهديد، كأساليب للضغط والمساومات وطلب التنازلات، قال تعالى: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}.

قال الشنقيطي – بعد أن ذكر جملة من الأقوال في سبب نزولها –: (وعلى كل حال؛ فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، ومعنى الآية الكريمة: الكفار كادوا يفتنونه، أي قاربوا ذلك، ومعنى يفتنونك؛ يزلونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره ممّا لم نوحه إليك، قال بعض أهل العلم: قاربوا ذلك في ظنهم لا في نفس الأمر، وقيل معنى ذلك؛ أنه خطر في قلبه صلى الله عليه وسلم أن يوافقهم في بعض ما أحبوا ليجرّهم إلى الإسلام لشدة حرصه على إسلامهم)[196].

قال الشيخ السعدي: (أي كادوا لك أمرا لم يدركوه، وتحيلوا لك على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق هواهم وتدع ما أنزل الله إليك، {وَإِذًا} لو فعلت ما يهوون؛ {لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا}، أي حبيبا حفيا... ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك وينابذوك العداوة إلا للحق الذي جئت به لا لذاتك... {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ} على الحق وامتننا عليك بعدم الإجابة لداعيهم؛ {لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا}، من كثرة المعالجة ومحبتك

---

[194] تفسير السعدي.
[195] الدرر السنية في الأجوبة النجدية.
[196] الأضواء 619/3.

لهدايتهم، {إِذًا} لو ركنت إليهم بما يهوون، {لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ} أي لأصبناك بعذاب مضاعف في الدنيا والآخرة)[197].

قال الشوكاني: (والركون هو الميل اليسير، ولهذا قال: {شَيْئًا قَلِيلًا}؛ لكن أدركته صلى الله عليه وسلم العظمة فمنعته من أن يقرب من أدنى مراتب الركون إليهم، فضلا عن نفس الركون)[198].

قال الشيخ حمد بن عتيق: (فأخبر تعالى؛ أنه لولا تثبيته لرسوله صلى الله عليه وسلم لركن إلى المشركين شيئا قليلا، وأنه لو ركن إليهم لأذاقه الله عذاب الدنيا والآخرة مضاعفا، ولكن الله ثبته فلم يركن إليهم، بل عاداهم وقطع اليد منهم، ولكن إذا كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم مع عصمته فغيره أولى بلحوق الوعيد به)[199].

وقال تعالى: {فَلَا تُطِعْ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}، والإدهان اللين والمصانعة.

قال القرطبي: (نهاه الله عن ممايلة المشركين، وكانوا يدعونه إلى أن يكف عنهم ليكفوا عنه فبين الله تعالى أن ممايلتهم كفر، وقال تعالى: {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا})[200].

قال الشوكاني: (نهاه الله عن ممايلة المشركين – وهم رؤساء كفار مكة – لأنهم كانوا يدعونه إلى دين أبائه، فنهاه الله عن طاعتهم، أو هو تعريض لغيره عن أن يطيع الكفار، أو المراد بالطاعة مجرد المداراة بإظهار خلاف ما في الضمير، فنهاه الله عن ذلك)[201].

قال أبو سعود في تفسيره: (وما عبر عنه بالطاعة للمبالغة في الزجر والتنفير، أي أحبوا تلاينهم وتسامحهم في بعض الأمور، {فَيُدْهِنُون}؛ أي فهم يدهنون حينئذ أو فهم الآن يدهنون طمعا في إدهانك)[202].

قال تعالى: {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ}.

---

[197] تفسير السعدي.
[198] فتح القدير 247/3.
[199] سبيل النجاة والفكاك: ص5.
[200] تفسير القرطبي 230/18.
[201] فتح القدير 268/5.
[202] 13/9.

قال القرطبي: (الركون؛ حقيقة الإسناد والإعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به، قال قتادة: معناه لا تودوهم ولا تطيعوهم، وقال ابن جريح: لا تميلوا إليهم، وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم وكله متقارب، وقال زيد: الركون هنا الإدهان وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم، وقال بعض العلماء: من مشى إليهم ولم ينكر عليهم عدّ من الراكنين إليهم، {الَّذِينَ ظَلَمُوا}؛ قيل أهل الشرك عامة فيهم وفي العصاة... {فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ}؛ أي تحرقكم بمخالطتكم ومصاحبتكم وممالأتهم على إعراضهم وموافقتهم في أمورهم) اهـ.

وكعينة لما عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإغراءات مقابل التخلي عن دعوة التوحيد؛ روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه أن عتبة وشيبة والنضر بن الحارث وأبا البحتري والوليد بن المغيرة وأبا جهل وعبد الله بن أمية وأمية بن خلف ورؤساء قريش اجتمعوا على ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض: (ابعثوا إلى محمد وكلّموه وخاصموه حتى تعذروا به)، فبعثوا إليه؛ أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم سريعا وهو يظن أنه بدا لهم في أمره بداءً، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعزّ عليه تعنّتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: (يا محمّد إنا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة، وفرّقت الجماعة، وما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إن ما جئت به لتطلب به مالا جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالا، وإن ما كنت تطلب به الشرف سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الرأي الذي يأتيك تراه قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك نبرئك منه أو نعذر فيك)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله عزّ وجل بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتّى يحكم بيني وبينكم)[203].

طلب الطواغيت للتنازلات سنة قدرية لا تتبدل:

يقول السيد قطب في تفسير قوله تعالى: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ... الآية}: (يعدد السياق محاولات المشركين مع الرسول صلى الله عليه

[203] انظر سبب نزول قوله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا...} في أسباب النزول للواحدي.

وسلم، وأولها محاولة فتنته عمّا أوحى الله إليه ليفتري عليه غيره، وهو الصادق الأمين، لقد حاولوا هذه المحاولة في صور شتى، منها مساومتهم له أن يعبدوا إلهه في مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آبائهم، ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضه حراما كالبيت العتيق الذي حرمه الله، ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس الفقراء، والنص يشير إلى هذه المحاولات ولا يفصلها، ليذكر الله فضل الله على الرسول في تثبيته على الحق وعصمته من الفتنة، ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته يركن إليهم فاتخذوه خليلا، وتلقى عاقبة الركون إلى فتنة المشركين؛ وهي مضاعفة العذاب في الحياة والممات دون أن يجد له نصيرا منهم يعصمه من الله، هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله.

وهي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائما، محاولة إغزائهم لينحرفوا ولو قليلا عن استقامة الدعوة وصلابتها، ويرضوا بالحلول الوسطى التي يغرونهم بها في مقابل مغانم كثيرة، ومن حملة الدعوة من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هينا، فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق، وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها، ولكن الإنحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الإنحراف الكامل في نهاية الطريق، وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو يسير، وفي إغفال طرف منها ولو ضئيل، لا يملك أن يقف عند ما سلم به أول مرة، لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء، والمسألة؛ مسألة إيمان بالدعوة كلها، فالذي يتنازل عن جزء منها مهما صغر، والذي يسكت عن طرف منها مهما ضَئل؛ لا يملك أن يكون مؤمنا بدعوته حق الإيمان، وكل جانب من جوانب الدعوة في نظر المؤمن هو حق كالآخر، وليس فيها فاضل ومفضول، وليس فيه ضروري ونافلة، وليس فيها ما يمكن الإستغناء عنه، وهي كل متكامل يفقد خصائصه كلها، حين يفقد أحد أجزائه، كالمركب يفقد خواصه كلها إذا فقد أحد عناصره.

وأصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات، فإذا أسلموا بالجزء، فقدوا هيبتهم وحصانتهم، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة وارتفاع السعر ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلها، والتسليم في جانب ولو ضئيل من جوانب الدعوة لكسب أصحاب السلطان إلى صفها؛ هو هزيمة روحية بالإعتماد على أصحاب السلطان في نصرة الدعوة، والله وحده هو الذي يعتمد عليه المؤمنون بدعوتهم، ومتى دبت الهزيمة في أعماق السريرة فلن تنقلب الهزيمة نصرا، ولذلك امتن الله على رسوله صلى الله عليه وسلم أن ثبته على ما أوحى إليه وعصمه

من فتنة المشركين له ووقاه الركون إليهم ولو قليلا، ورحمه من عاقبة هذا الركون، وهي عذاب الدنيا والآخرة مضاعفا وفقدان المعين والنصير)[204].

وتبقى سنة الله القدرية ماضية في اتباع الرسل، "فما من قضية إسلامية إلا ولا بد أن تتعرض للإغراء والتهديد، كأساليب للضغط والمساومة وطلب التنازلات، فهذه سنة قدرية لا بد أن تقع، كما قال تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}، وكم من قضية رفعت فيها الراية الإسلامية ويقاتل المسلمون تحتها؛ لتنتهي القضية برفع الراية العلمانية بعد سقوط الآلاف من القتلى"[205].

"إن الناظر في تاريخ الحركة الإسلامية القريب يرى كيف سقطت ما تسمى كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة - وهم الإخوان المسلمون - في فخ الحوار مع الحكومة، بداية من مرشدهم الأول البنّا وإلى الآن، وما حدث في مصر فعلته "حركة الإتجاه الإسلامي" في تونس بقيادة راشد الغنوشي، التي أوهمت المسلمين بأن عداء الإسلاميين نحو شخص "بورقيبة" لا نحو نظام كافر، والمسلسل على طول الخط يبدأ بالحوار ثم المفاوضات ثم التنازلات عن المبادئ من خلال الإعتراف بشرعية الحكومات الكافرة ومؤسساتها ووسائلها الكفرية وإنكار الجهاد واصمين إياه بالعنف والإرهاب، وتمييع قضايا الدين والعقيدة في نفوس المسلمين، ليطول بهم عصر التيه تحت هيمنة النظم الكافرة التي نجحت في احتوائهم وتحويلهم إلى طابور خامس — عملاء - يمزق جسد الحركة الإسلامية ويصيبها بالتخدير والشلل"[206].

ويتكرر السيناريو نفسه عندنا في الجزائر مع "الإخوان العالميين" بقيادة محفوظ نحناح؛ والحق أن ما يقال عن الإخوان يقال عن الجماعات الأخرى، وقيادات دينية وسياسية في عالمنا الإسلامي استجابت للمساومات وباعت قضايا الإسلام والمسلمين بعرض من الدنيا قليل، وكانت أشبه بملوك طوائف الأندلس...

* * *

ومما يتعلق بالعمل المسلح، أنقل لك نموذجين من تاريخ الجزائر:

[204] الظلال: 2245/4 - 2246.

[205] العمدة: ص48.

[206] بتصرف من الحوار مع الطواغيت، للظوهري، وانظر مبادرة الجماعة الإسلامية المصرية اعتراف بالخطأ أو انهيار وسقوط، لأبي بصير؛ لنقف على نتائج جريمة الحوار.

– الأول؛ أيام حركة المقاومة للأمير عبد القادر:

فحين احتلت فرنسا الصليبية الجزائر قوبلت بمقاومة عنيفة وهجرة واسعة للمسلمين من وطنهم الجزائر، فأرادت أن تعرف السر، فدست جاسوسا تظاهر بالإسلام داخل جيش الأمير، فأدرك أن السر هو عقيدة المسلمين التي تحرم عليهم العيش تحت حكم الكافر، وتوجب عليهم جهاده أو الهجرة.

وهداها شيطانها إلى الإستعانة بخصوم الأمير من الطرق الصوفية، فحبّر لهم فتوى تجيز للمسلم أن يعيش تحت حكم الكافر إذا سمح له بإقامة شعائره الدينية، وطار سفيرها مصحوبا بالصوفي العميل إلى القيروان والإسكندرية والحجاز، ليحصل على تزكية الفتوى من علماء المسلمين، وتمّ لفرنسا ما أرادت، ووزعت الفتوى في أوساط المسلمين الجزائريين.

ويعيد التاريخ نفسه ويقدم مشايخ السلفية – سامحهم الله – خدمة جليلة للطاغوت الذي وزع الأشرطة مجانا، ونثرت مروحياته نصائح بخط ابن عثيمين رحمه الله نعم خدموا الطاغوت من حيث شعروا أو لم يشعروا، وعند ربك تجتمع الخصوم.

– الثاني؛ "مشروع سلم الأبطال":

أثناء حرب التحرير الجزائرية تصدعت عنجهية فرنسا على صخرة الصمود والمقاومة، وبعد تغافل فرنسا بدأت تبحث عن محاور غير جبهة التحرير، لكنّها فشلت بفضل التفاف الشعب حول جبهة التحرير... وتعرض المساومات تلو المساومات، وتسقط الحكومات تلو الحكومات.

ويعود "ديغول" ليجد حلا لمأزق الجمهورية، فكان من خططه "مشروع سلم الأبطال"، المتمثل في الإستسلام اللا مشروط مقابل عفو فرنسا... هذا المشروع اللعين رفضته "جبهة التحرير" رغم استجابة الكثير من المقاتلين فرادى – وسموا يومئذ خونة – واستمر الصمود والكفاح حتى جاء الإستقلال – بخيره وشره –

وفي هذه الحقبة من الزمن من تاريخ جهادنا المبارك؛ حاول الطاغوت أن يحتكم إلى سياسة الإستئصال، لكن صلابة المجاهدين وضرباتهم الموجعة أرغمته على المناورة... محاورة "شيوخ الجبهة" وهم داخل السجن ليعلنوا الهدنة ويندّدوا بالإرهاب... وأنجب الطاغوت "قانون الرحمة" فاتحا باب التوبة أمام المجاهدين، ثم "مشروع الهدنة" ثم "قانون الوئام المدني"، وها نحن اليوم نعيش مخاض "المصالحة الوطنية".

تحركات على كافة الأصعدة، ومشاريع متتالية، كلها تريد، القضاء على الجهاد وتمييع قضايا الإسلام والمسلمين وإضفاء الشرعية على الجاهلية وتحكيمها في رقاب المسلمين.

"... نعم تنصب المصائد ويقام صنم المصلحة، ويسقط المتساقطون ويخون الخونة قضايا الإسلام والمسلمين ويتاجر المتاجرون بآلام الأمة ودماء المجاهدين... إن من أعظم ما يحز في النفس ويقدح في مروءة الرجال؛ متاجرة المتسلقين من الساسة والدعاة بتضحيات المجاهدين، ليحققوا مكاسب دعوية وسياسية... للأسف في الوقت الذي تسيل فيه دماء الأبرياء سخية؛ يعانق هؤلاء الخونة الطواغيت ويتزلفون إليهم بالقرابين تنفيذا لمشروع متيران، المتمثل في ضرب الإسلام المتطرف بالإسلام المعتدل، نعم بيادق حرب الأفكار الرامسفيلدية... لقد فهم زعماء الصحوة الإسلامية اللعبة واستغلوها لصالحهم، وباع كثير – وما زالوا – دينهم بدنيا حكامهم، وآثروا السلامة والمكاسب باسم مصلحة الدعوة، وعند الله تجتمع الخصوم"[207].

وممّا يجدر التنبيه إليه هنا؛ أن الفكر المصالحاتي شأنه كالفكر الإرجائي، لم يعد مجرد قناعة عند فرد أو أفراد، بل هو منهج يراد له أن يتمكن من عقول شباب التيار الإسلامي، ويسخّر له كل الإمكانات المادية والمعنوية.

وإليك كلام علي الشريف – أحد قيادات الجماعة المصرية – يقول: (أؤكد لك أنّنا لدينا خطوات عديدة في هذا الاتجاه، والخطوة الأولى أننا ذهبنا إلى كل السجون ننشر هذا الكلام ونعلّمه لكل الأفراد، والخطوة الأكبر سوف تكون بعد خروجنا من السجون، فكل شباب التيار الإسلامي لا بد أنّ نصل به إلى قناعة داخلية؛ بأنّ القتال مع الحكومة يأتي بمفاسد ضخمة، ولن نقتصر على مصر وحدها، بل سيكون هذا الفكر الجديد إقليميا وعالميا)[208].

وعلى هذا المنحى وفي نفس المستنقع؛ سقطت بعض قيادات "الجبهة الإسلامية للإنقاذ"، وخرج علينا عباسي بمبادرة وقف العنف ضد الطاغوت، الذي كان هو أول ضحاياه وغيره ممن رضي لدينه بالدنية، نسأل الله السلامة والعافية.

يقول الأستاذ محمود شاكر: (فقد تمكن الأعداء في الآونة الأخيرة – وفي أشد الأوقات حاجة إلى المنظمات الإسلامية وإلى القيادات الإسلامية الرائدة التي تمثل الإسلام وتحمله بصفاء – تمكنوا من احتوائها والسير بها في طريقهم المنحرف، وأعلنوا ذلك كي تسقط القيادات وتسقط المنظمات، وبالتالي تسقط المفاهيم التي يحملونها، والتي لا تزال

[207] مختصر شهادتي على الجهاد في الجزائر، أبي مصعب السوري: ص57.
[208] مبادرة الجماعة المصرية، لأبي بصير.

معروفة نظريا، لقد أكثر زعماء أكبر منظمة إسلامية في المنطقة العربية، بل بقوا في جعجعة دائمة يظهرون العمل للإسلام زيادة في التمويه على شباب الإسلام والعاملين له... وهذا التصرف – سواء كان من الأعداء أو من الأدعياء – ليستمر الخداع، ثم تهوي المنظمات والدعاة معا ويصفو الجو للأعداء، وليس الإحتواء غاية، ولكنه وسيلة، لأنّه ستظهر منظمات جديدة وقيادات جديدة، وستستمر الفكرة في طريقها، ولكن الغاية تهديم الأفكار وفضح حامليها مع استمرار قيادتهم والمناداة لفكرتهم، رغم احتوائهم وانقيادهم لغيرهم)[209].

"... وهذا التمييع هو أخطر ما يعانيه هذا الدين في هذه الحقبة من التاريخ، وهو أفتك الأسلحة التي يحاربه بها أعدائه، الذين يحرصون على تثبيت لافتة الإسلام على أوضاع وعلى أشخاص؛ يقرر الله سبحانه في أمثالهم أنّهم مشركون، لا يدينون دين الحق، وأنّهم متخذون أربابا من دون الله، وإذا كان أعداء هذا الدين يحرصون على تثبيت لافتة الإسلام على تلك الأوضاع وهؤلاء الأشخاص؛ فواجب حماة هذا الدين أنّ ينزعوا هذه اللافتات الخداعة، وأنّ يكشفوا ما تحتها من شرك وكفر واتخاذ أرباب من دون الله"[210].

– أسباب الركون:

"... إنّ المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة؛ يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر في نفسه على الشيطان مع هواه وشهواته، مع مطامعه ورغباته... مع مصالحه ومصالح عشيرته وقومه... مع كل شارة غير شارة الإسلام... ومع كل دافع إلى العبودية لله، وتحقيق سلطانه في الأرض وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله"[211].

"ودور الحركة الإسلامية أصلا؛ هو ليس التصالح مع الواقع القائم ولا الانقياد له، ولا حتى الالتقاء معه في وسط الطريق، بل دورها هو تغيير هذا الواقع القائم من أساسه وإزالته بقضّه وقضيضه، لأنّ هذا الواقع جاهلي ومناقض تماما للواقع الإسلامي المنشود"[212].

هذا هو الأصل الذي لا تخلوا منه أدبيات أية جماعة دعوية جهادية، لكن الواقع يسفر عن خلاف ذلك.

وإن كان لا بد من البحث عن الأسباب فيمكننا تسجيل ما يلي:

1) ضعف الرؤية الإيمانية لمفهوم الصراع بين الحق والباطل، حينما يستعلي الباطل وتكون له الغلبة الظاهرية، فتضعف نفوس ويمتلكها الخور، وتقول بلسان الحال والمقال:

[209] التاريخ الإسلامي 706/9.
[210] الظلال: 1643/3.
[211] معالم في الطريق.
[212] الحركة الإسلامية بين الثبات على المبادئ وضغوط الواقع، لأبي سعد العاملي.

"أيمكن لفئة قليلة جفّفت منابعها أنّ تصاول تحالفا دوليا؟!"، وينسيها هول المعركة معية الله ودور الإيمان في ترجيح كفة الصراع.

2) غياب الرؤية المستقبلية وضعف الإيمان بالوعد الإلهي بالنصر والغلبة لأصحاب الحق، وبأنّ الحرب سجال، فغلبة الباطل في جولة لا يعني أنّ هذه الغلبة مطلقة ودائمة، أو بأنّ الحق لن يستطيع مقاومته، وعليه بالتالي أنّ يخضع ويستسلم معربا عن تغلب تهديد الطاغوت على وعد الله في ضمير المجاهد.

3) الهروب من القروح ومن الطرق الشائكة من أجل تحقيق النصر، وهذا الأمر يدعو ويجمع الحركة الإسلامية والجهادية إلى البحث عن الوسائل السهلة والناعمة، حتّى وإن أدى بها إلى الوقوع في أحضان القوى الطاغوتية ومسايرتها وفق الشروط التي تفرضها وتقترحها... وتوقّع الحركة الجهادية على وثيقة السّلم المخزية.

4) التشوق إلى تحقيق النصر والتمكين بأي الوسائل الممكنة وفي أسرع الآجال، ولا شك أنّ نشوة النصر تفقد الإنسان الكثير من الإتزان وتغيّب عنه تلك المقاييس الإيمانية التي يزن بها الأمور، فتختلط عليه الأمور لتصبح الأهداف وسائل، والوسائل أهدافا، أو بعبارة العصر يصبح الإستراتيجي والتكتيكي شيئا واحدا... والإستعجال يفسد أكثر ممّا يصلح، ومن تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، والتعجل علّة الحرمان[213].

5) "من الآفات التي تنخر في عقيدة كثير من النّاس اتجاه الجهاد؛ تعليق شعيرة الجهاد بمعركة، فإن انتصرنا في تلك المعركة فهذا يدل على صحة ذلك المبدأ، وإن هزمنا فهذا يدل على بطلان المقدمة والمبدأ، وهذا باطل شرعا وعقلا، وهو ناتج عن الانهزامية وقلة الإيمان وعدم الصبر والمصابرة"[214].

"فمن أكبر أسباب الضلال في الدعوات على مر العصور؛ مراعاة النتائج ومراقبة الثمرات، وهذا وقع في أصل الإسلام ممن قال الله فيهم: {وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ... الآية}، ويقع في الفروع والمناهج والأعمال على درجات ومراتب، واشتراط النتائج في العمل من التكلف ممّا لم يأمر به الله... والتغيّر عند تغيير النتائج فرع على التعدي على حق الله والتجاوز لحدوده.

والنظر إلى النتائج يكون على وجهين:

---

213 راجع للإستفادة من الحركة الإسلامية بين الثبات على المبادئ وضغوط الواقع، لأبي سعد العاملي.
214 ثوابت على درب الجهاد، يوسف العييري رحمه الله.

الأول: التأثر بضلال الضالين، والضيق بعناد المعاندين...

الثاني: ترك الحق إن لم يقبله النّاس، أو رأى من نتائجه ما لم يكن يظنه يقع، وهذا حال من ذكر الله عنهم: {وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ... الآية}، وهو واد من أودية الضلال – نسأل الله السلامة – وقد وقع من كثير من الدعاة تراجعات عن أصول ومبادئ يستندون فيها إلى التجربة، وهم كمن يزرع ويستعجل الحصاد، فيحرث أرضه ويبطل ما صنع وزرع"[215].

معاني الهزيمة:

عندما تغيب أو تغيّب الموازين التي يفهم بها الشّرع ويوزن بها الواقع، وتستقل العقول الهزيلة بذلك، تميّع الحقائق الشّرعية والواقعية، ومن ذلك تفسير الهزيمة والنصر بما يحلوا للمنهزم ويستر سوأته، لذلك سنحاول إماطة اللثام عن بعض معاني الهزيمة.

"إنّ الصراع المتمثل بين البشر على هذه البسيطة إنّما هو صراع مبادئ ترجمته الشعوب إلى صراع أبدان وخاصة بين المسلمين ومن سواهم من الكافرين، فبما أنّ أصل الصراع هو صراع مبدأ وصراع عقيدة فبالتأكيد فإنّ التنازل عن هذه المبادئ والمعتقدات يعدّ هزيمة ولو بقيت الأبدان، فلا فائدة من وجودها حينما عُدم المبدأ والمعتقد.

وأول معاني الهزيمة يتمثل في قوله تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ... الآية}، فعندما يرتد المسلم على عقبيه ويعلن اتباعه لملة اليهود والنصارى أو أي ملة كفرية أخرى... سواء كان هذا الإتباع كليا أو جزئيا فإن هذا يعدّ أعلى أنواع الهزيمة حتّى لو حقّق المتّبع رضا اليهود والنّصارى وغيرهم من ملل الكفر وحقّق من الثراء والرياسة والقيادة ما لم يتحقق له بعدم اتباعه لملتهم واتباع الملّة ليس شرطا أن يكون من خلال إعلان المرتد أنه على ملتهم فهذا يندر وجوده في التاريخ... والحاصل فإن اتباع ملة اليهود والنّصارى تكون بالقول أو العمل أو الإعتقاد وحينما نستصحب هذا التوصيف فما أكثر المهزومين من أبناء المسلمين.

ومن معاني الهزيمة الركون والميل للكافرين وأصحاب الباطل – وقد سبق ذكر شيء من ذلك –

ومن معاني الهزيمة اليأس من نصر الله تعالى وتأييده: ولا ييأس من روح الله إلا الضالون، فالآلة الإعلامية والعسكرية التي حشدها الكفر العالمي لحرب الإسلام جعلت كثير

[215] هشيم التراجعات، لعبد الله ناصر الرشيد.

من المسلمين يدب إليه اليأس وينسى موعود الله بالنصر... فمنهم من ترك العمل والدّعم للمجاهدين بحجة أن القضية خاسرة... وصور مظلمة كثيرة تحكي عن كثير من المسلمين اليأس والقنوط من نصر الله وتمكينه وبطشه بأعداء الله.

وهذه الصور بكافة أشكالها ومعانيها – حتّى التي ألبست لبوس الفاقة الزائف – كلها تعبّر عن الهزيمة، ونحن اليوم نرى الأمّة الإسلامية لم تعمل ولم تجاهد ولكن عدوها انتصر عليها بالتهديد والدّعاية والإعلام فقط، فلم تجابه عدوها، ولكنها أحسنت وضع العوائق في طريق النصر وأحسنت التعذير لهزيمتها.

ومن معاني الهزيمة؛ التخلي عن راية الجهاد: إن العدو لا يطلب منّا أكثر من التخلي عن راية الجهاد في الوقت الحالي فتخلي المسلمين عن تلك الراية سواء عقديا أو فكريا أو عمليا ولو لمرحلة قصيرة هذا هو معنى الهزيمة التي يوصف بها من غيّر مبادئه أو انقلب عليها أو تبرم منها.

ومن معاني الهزيمة خوف العدو: فالعدومن خلال البطش بالضعفاء يريد إرهاب غيره من خلال أن يسلكوا مسلكه... فالخوف من العدو هدف يسعى العدو لتحقيقه فخوف المسلمين وخنوعهم وترك شعيرة الجهاد أحب للعدو آلاف المرات من قيامهم للجهاد حتّى لو كانوا ضعفاء سيقتلون، لأن الضعيف يوشك أن يتقوى لخدمة هدفه ومبدئه – الخائف لا هدف له ولا مبدأ ولا عمل فلن يوظف أي شيء لخدمة أعماله، ومتى دبت الهزيمة في أعماق السريرة فلن تنقلب الهزيمة نصرا..."[216].

علاج الركون:

1) "التصميم على بلوغ الهدف: ضغوط الواقع يجب أن تقابل بإرادة قوية من قبل التجمع الإسلامي المبدئي ويمكن التغلب عليها باستحضار سمو نبل أهدافنا، والقيمة الكبرى للمعركة التي نخوضها مع هذا الواقع لتغييره ليكون تابعا لا متبوعا وهي سنة الأنبياء والمرسلين من قبلنا جاؤوا ليغيروا واقعهم من أساسه وليس من أجل التصالح معه والرضوخ له"[217].

قال النبي صلى الله عليه وسلم لرسول قريش يوم الحديبية: (إن قريشا قد أنهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين النّاس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه النّاس فعلوا وإلا فقد جمّوا، وإن هم أبوا؛ فوا الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره).

[216] بتصرف من ثوابت على درب الجهاد للشيخ يوسف العييري رحمه الله.
[217] الحركة الإسلامية بين الثبات على المبادئ وضغوط الواقع.

السالفة؛ صفحة العنق وكنّى بذلك عن القتل... يحتمل أن يكون أراد أن يقاتل حتّى ينفرد وحده في مقاتلتهم.

وقال إبن المنير: (لعله صلى الله عليه وسلم نبّه بالأدنى على الأعلى أي أن لي من القوة بالله والحول به ما يقتضي أني أقاتل عن دينه لو انفردت، فكيف لا أقاتل عن دينه مع وجود المسلمين وكثرتهم ونفاذ بصائرهم في نصر دين الله)[218].

وقال أبو السعودي في تفسير قوله تعالى: {فَلَا تُطِعْ الْمُكَذِّبِينَ}: (تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم، أي دُم على ما أنت عليه من عدم طاعتهم وتصلّب في ذلك) اهـ.

"فعلى أصحاب الحق أن يستعيدوا ثقتهم في ربهم ثم في أنفسهم ثم يستعدّوا للجولة القادمة..."[219].

2) <u>الصبر على طول الطريق:</u> "طريق النصر طريق طويل وشائك ومليء بالقروح والجروح، وعليه فإن الإستمرارية فيه هو عين الصواب، وبأن هذه التضحيات هي الثمن الطبيعي للنصر المرتقب... يقول ابن القيم في هذا المجال كلمة جامعة بليغة: (إن أوّل الأمر ابتلاء وامتحان، ووسطه صبر وتوكل، وآخره هداية ونصر)"[220].

"قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، أي اصبروا على طاعة الله، والجهاد طاعة لله تعالى فيجب على المسلم الصبر على هذه الطاعة وما فيها من مشاق وبذل للمال وغربة عن الأهل وتعرض للجراح، وصابروا على أعداء الله أي نافسوهم في الصبر... وما يدخل في الصبر، الصبر على أهوال القتال وفقد الإخوان وكَلَب الأعداء، قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}.

ورضي الله عن أسعد بن زرارة حيث قال عند بيعة العقبة: (رويدا يا أهل يثرب إن إخراجه – أي النبي صلى الله عليه وسلم – اليوم مفارقة للعرب كافة وقتل خياركم وأن تعظكم السيوف، فإن أنتم قوم تصبرون على ذلك؛ فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة؛ فذروه، فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله...).

---

[218] نيل الأوطار، كتاب الجهاد.
[219] مقال لأبي سعد العاملي.
[220] نفس المرجع.

وممّا يدخل في الصبر؛ الصبر على شبهات المخذلين والمخالفين والمرجفين... والصبر على طول الطريق، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لخباب: (ولكنكم قوم تستعجلون)، إن الإستعجال يفتح بابا للشيطان ليدفع بالعبد إلى التنازل التدريجي عمّا هو عليه من الحق ظنا منه أنه يختصر الطريق وهو قد ضل الطريق وحاد عنه... إن هذا التنازل وهذه الحيدة عن الحق عادة ما تغلّف بما يواري السوأة كالقول بأن هذا من الحكمة والسياسة ومصلحة الدّعوة فينبغي أن يعلم المسلم أن اتباع الحق والصبر عليه هو أقصر طريق إلى النصر وإن طال الطريق وكثرت عقباته وقلّ سالكوه وإن الحيدة عن الحق لا يأتي إلاّ بالخذلان وإن سهل طريقها وخيّل لسالكيها قرب الظفر فإنما هي أوهام"[221].

وممّا له علاقة بهذه النقطة؛ ضرورة التفريق بين جمال الأفكار المجردة وبين صورها الواقعية والعملية.

"حين يتحدث النّاس عن الجهاد في سبيل الله تعالى فهذه كلمة جميلة وجميلة جدا... ولكن واقع الجهاد ليس جميلا كله في كل أحداثه فالجهاد ليس هو هذه الخطب الرنانة، وليس هو تلك الكلمات الجميلة، وليس كله غنائم وسبايا، وليس كله نصر مؤزر، وليس كله خطب نارية، بل فيه موت الحبيب وجرح الصديق، وفيه تطاير الأشلاء وفقد المال وفقد المعين، وبمعنى آخر فيه جانب من المشقة بل المشقة العظيمة ثم فيه اختلاط الجنود وحصول الخصومات بين النّاس، فهذا ضرب هذا، وهذا خاصم هذا، وهذا شط على هذا فهو حركة بشرية وفيه أخطاء واجتهادات وتأويلات، بعضها يستساغ وبعضها ليس كذلك، فهناك حد فاصل بين جمال الفكرة وسموِّها وبين واقعيتها... إن العيش مع الكتب وبين الكتب ومع الأفكار والقلم والورقة ليس هو الإسلام، إنما الإسلام هو حركة الحياة، حركة البشر – الإنسان – بما فيه من صواب وخطأ فالصواب يقوّى ويدعّم والخطأ يقوّم ويصلّح فعالم الإسلام العملي فيه الصواب وفيه الظلم فيه الصدق وفيه الكذب وكل له مقامه في الإسلام"[222].

ومما له علاقة بطول الطريق؛ أن تعلم أن الحرب حالة من الصراع الناشب بين معسكرين لتحقيق مكاسب سياسية أو اقتصادية أو إيديولوجية أو لأغراض توسعية وهي عادة آخر الأوراق بيد السياسة، وحرب العصابات أحد أنواعها، هي حرب بأبسط الأشكال وأرخص الأدوات من قبل طرف فقير ضعيف ضد ظالم قوي يتفوق عليه في العدة

[221] العمدة: ص382 – 383 بتصرف.

[222] الباحث عن حكم قتل أفراد وضباط المباحث، للأزدي، انظر الجهاد والإجتهاد، لأبي قتادة الفلسطيني.

والعتاد... والغرض من الحرب تحطيم القوة المعادية وإرضاخها أو القضاء على العدو واجتثاثه أو إثبات الوجود.

واعلم ثانيا؛ أن الذي يحدد موقف المجاهدين من مراحل حرب العصابات هي قيادة المجاهدين ولا يترك ذلك للأفراد...

استيعاب معاني النصر:

إن كثير من المسلمين يظن أن كل متعبد بفريضة الجهاد لا بد أن ينتصر نصرا ميدانيا وأن الله شرع الجهاد ورتب عليه النصر الحسي فقط لأن مفهوم النصر منحصر عند الكثيرين بالغلبة العسكرية فحسب ولو اتسعت مدارك النّاس وفهموا معنى النّصر لتأكدوا أن كل من ركب ذروة سنام الإسلام لا يمكن أبدا أن يخسر بل هو منتصر على كل الأحوال حتّى لو أسر أو قتل ولو أعطينا مفهوم النّصر حقه لوجدنا أن الأمّة الإسلامية جمعاء لا يمكن أن تخسر بالجهاد بل الجهاد ربح على كل أحواله وإن بدا أحيانا في الميدان غير ذلك ونقف بعبارات يسيرة على بعض معاني النصر، فما لا يدرك جله لا يترك كله.

فمن معاني النصر:

- بخروج المجاهد إلى الجهاد؛ يكون قد حقّق انتصار على نفسه وشيطانه والمحبوبات الثمانية وما تفرع عنها.

- وبخروجه يكون قد حقق نصرا لأنه أصبح من أهل قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}.

- وبخروجه يكون قد حقق نصرا على المثبطين من بني جلدته الذين يصدون عن الجهاد بكل سبيل وبكل حيلة.

- ونصر المجاهد يتمثل أيضا؛ في ثباته على طريق الجهاد رغم ما يصيبه من شدة وما يعرض له من تثبيط.

- ويتحقق نصر المجاهد أيضا؛ عندما يخرج ليبذل نفسه ووقته وماله في سبيل مبادئه ونصرة دينه فإن الفداء لهذا الدين هو انتصار بنفسه سواء كانت له الغلبة أو لعدوه، إن الأمة التي تواجه بإيمانها عدوها المدجج بأحدث الأسلحة والعتاد، إنها أمّة منتصرة بشموخها ومبادئها.

– ومن معاني النصر؛ أن ينصر الله عباده نصر حجة وبيان، فبجهاده يظهر الحق ويعلوا كما نصر الغلام.

– ومن معاني نصر الله للمجاهدين؛ أن يهلك عدوهم بقارعة من عنده ويكون سبب تلك القارعة هو جهاد المجاهدين.

– ومن صور النّصر؛ أن يكون الجهاد سببا في فقر الكافرين وموتهم على كفرهم وعدم هدايتهم.

– ومن صور النصر؛ أن يتخذ الله من عباده شهداء فكل عبد يعمل ويكدح لله تعالى أنما من أجل أن يدخل الجنة.

– ومن معاني النصر أيضا؛ حفظ المؤمنين وإبطال كيد الكافرين.

يقول الشيخ السعدي في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ}، يقول: (يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمة عظيمة ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وإنهم كما أنهم يعدّون قتلهم لأعدائهم وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمة، فليعدّوا أيضا إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم وردّ كيدهم في نحورهم نعمة، فإن الأعداء قد همّوا بأمر وظنوا أنهم قادرون عليه فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم فهو نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي أن يشكروا الله على ذلك... وهذا يشمل كل من همّ بالمؤمنين بشرّ من كافرٍ أو منافقٍ وباغٍ كف الله شره عن المسلمين فإنه داخل في هذه الآية) اهـ.

– ومن صور النصر أيضا؛ النصر الميداني، وكثير منهم يحصر النصر به فقط وهذا خلل في المفهوم فلا بد من اصطحاب جميع أنواع النصر وما في معناها، مع العلم أن نصر التمكين والغلبة والسلطان هو الذي سيؤول إليه الحال في نهاية الأمر للأمة الإسلامية، فإن لم يحصل هذا في زماننا فإنه قطعا سيحصل دون أدنى شك فيمن بعدنا... والنصوص الدّالة على ذلك كثيرة[223].

قال صاحب "العمدة": (ولنا هنا تنبيهان:

الأول: إذا كان النّصر بيد الله وحده فإن ما عند الله تعالى لا يؤخذ إلا بالأسباب التي شرعها في هذا المقام... وهذا معناه جهد وبذل ودعوة وصبر متواصل أردت من هذا تنبيه

[223] ثوابت على درب الجهاد، بتصرف.

الغافلين القاعدين الكسالى الذين يتمنون على الله الأماني ويرجون نصر الله وهم لم ينصروا دينه بشيء كما أردت تنبيه أولئك الزّائفين الذين يتصدون للعمل الإسلامي في هذا الزمان ولا يسلكون سبيل الجهاد المتعين ولا يأخذون بالأسباب التي شرعها الله لنصرة الدين.

الثاني: وهو لأولئك الآيسين من رحمة الله الذين آيسوا من أن ينهض المسلمون ممّا هم فيه من الذل والهوان، الذين آيسوا من أن يتمكن المسلمون من التغلّب على قوى الكفر العالمية المتربصة بهم، ترى أحدهم يقول كيف تقوم للمسلمين دولة ومعظم البلدان الآن خاضعة لأمريكا أو لروسيا؟... وغير ذلك من الكلام الذي يثبّط المسلمين ويفتّ في عضدهم ويجعلهم يستسلمون للأمر الواقع.

وما يؤسف له أن هذه الأراجيف يشيعها بعض من يتصدّون للدعوة الإسلامية في هذا الزمان ولذلك فلا تستغرب مواقفهم المخزية من الطواغيت ومن قوى الكفر المختلفة.

أمّا نحن فنقول؛ أن من ظنّ أن قوى الكفر العالمية بكل مقدّراتها يمكنها أن تحول دون قيام دولة للمسلمين إسلامية الشكل والمضمون فقد ضل ضلالا مبينا، بل هو مكذب بآيات الله تعالى وبوعده الصادق... فليس النصر بيد أمريكا ولا بيد روسيا... ومهما بلغت قوى الكفر العالمية من القوى فلن تستعصي على قدرة الله جلّ وعلا... إن الذين أفزعتهم جنود الكافرين وجيوشهم نسوا قول الله تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}، وإن الذين أفزعتهم أموال الكافرين وسيطرتهم نسوا قول الله تعالى: {وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ}، إن الذين أفزعتهم حصون الكافرين وآلاتهم المانعة نسوا قول الله تعالى: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ}... وإنّ الذين أفزعتهم استخبارات الكافرين نسوا قول الله تعالى: {وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ}... لأن حصون الكافرين من الله لا تمنع وإن الجيوش مع بطشه لا تنفع وإن الأموال عنده لا تشفع والخديعة القدرية لا تدفع... وأعود فأذكر أن فشلنا ذاتي لأسباب في المقام الأول؛ {وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ}، وبأن التغيير لا بد أن يبدأ أيضا من الذات، قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}...)[224].

"والله أمرنا بالطاعة في الأحوال المختلفة من المنشط والمكره والعسر واليسر، وهو عزّ وجل يحب أعمالا في مواطن من مواطن اليسر وأخرى في مواطن من مواطن العسر فشاءت حكمته أن ينتقل بعباده بين حالَيْ العسر واليسر والرخاء والضر ليعلم سبحانه الشاكرين الصابرين... وإذا كان هذا في العبادة عموما فإن ذروة السنام وسياج الإسلام الجهاد في

[224] العمدة في إعداد العدة بتصرف: 357 – 359، راجعه بطوله فإنه مهم.

سبيل الله الذي تميز بما فيه من القرح والبأس والشدة والألم والجراح والقتل والأسر مع نقصان الأموال والثمرات وتلف الأنفس... إن هذه الشعيرة العظيمة النفيسة لأبين موطن تظهر فيه هذه العبودية ويخاطب المكلف فيها بالصبر على الحالين، فقد أمر الله الناس: {انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... الآية}، وفي حال كهذه الحال وعبادة كهذه العبادة لا يستغرب تراجع من يتراجع ونكوص من ينكص، ولولا ذلك لما كان للإبتلاء والفتنة معنى، ولا ما كان للصابرين الصادقين في الفتن والإبتلاءات ميزة عن غيرهم"[225].

أخي المسلم أعود فأؤكد لك:

"إذا كانت النصوص المبشرة بالنصر العسكري للأمة والتمكين في الأرض والغلبة والسلطان كثيرة لا يسوغ أبدا أن يتّكل العبد على تلك النصوص ويترك العمل بحجة أن النصر آت لا محالة ولكن يجب عليه إذا فهم معاني النصر أن يكون سبّاقا لها... لا بد أن يحاول جاهدا أن يحقّق لنفسه شيئا من معاني النصر الأخرى حتّى يأتي وعد الله بالنصر الميداني؛ {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}"[226].

قال بن القيم:

والحق منصور وممتحن فلا تعجب فهذي سنة الرحمان
وبذاك يظهر حزبه من حزبه ولأجل ذلك النّاس طائفتان
فاصدع بأمر لا تخشى الورى في الله واخشاه تفز بأمان
واهجر ولو كل الورى في ذاته لا في هواك ونخوة الشيطان
واصبر بغير تسخط وشكاية واصفح بغير عتاب من هو جان

- تكاليف الركون:

يقول السيد قطب رحمه الله: (إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده... مهما عظمت وشقت، أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت، أن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق إنما تكاليف بطيئة طويلة مديدة، تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته، فهذه الإنسانية لا توجد والإنسان عبد للإنسان، وأي عبودية شرّ من خضوع الإنسان لما يشرّعه له الإنسان... وأي عبودية شرّ من تعلّق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر ورضاه أو غضبه عليه،

[225] هشيم التراجعات، بتصرف.
[226] ثوابت على درب الجهاد، للعييري رحمه الله.

وأي عبودية شرّ من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟ وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان... على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني، أنه يهبط ويهبط حتّى يكلف الإنسان في حكم الطواغيت أمواله التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج، كما يكلّفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات فوق ما يتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها، فيذبحهم على مذبح هواه ويقيم في جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه ثم يكلّفهم أعراضهم في النهاية حتى لا يملك أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت سواء في صورة الغصب المباشر كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ، أوفي صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهبا مباحا للشهوات تحت أي شعار وتمهّد لهن الدعارة والفجور تحت أي ستار، والذي يتصوّر أنه ينجوا بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله إنّما يعيش في وهم أو يفقد الإحساس بالواقع، إن عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال ومهما تكون تكاليف العبودية لله هي أربح وأقوم حتّى بميزان هذه الحياة فضلا عن وزنها في ميزان الله، إن الدينونة لله تحرر البشر من الدينونة لغيره وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.

وبذلك تحقّق للإنسان كرامته الحقيقية وحريته الحقيقية، هذه الحرية وتلك اللتان يستحيل ضمانهما في ظل أي نظام آخر غير النظام الإسلامي... لا بد للنّاس من دينونة، والذين لا يدينون لله وحده يقعون من خورهم في شر ألوان العبودية لغير الله في كل جنب من جوانب الحياة... وأخيرا تجيء تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية، وما من أضحية يقدمها عابد الله لله إلا ويقدّم الذين يدينون لغير الله أضعافها للأرباب الحاكمة من الأموال والنفس والأعراض، وتقام أصنام من الوطن ومن القوم ومن الجنس ومن الطبقة ومن الإنتاج ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب وتدق عليها الطبول وتنصب لها الرايات، ويدعى عباد الأصنام إلى بذل النفوس والأموال لها بغير تردد وإلا فالتردد هو الخيانة وهو العار... إن كل التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليعبد الله وحده في الأرض وليتحرر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام ولترتفع الحياة الإنسانية إلى الأفق الكريم الذي أراده الله للإنسان، إن كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليبذل مثلها وأكثر من يدينون لغير الله والذين يخشون العذاب والألم والإستشهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأموال إذا هم جاهدوا في سبيل الله... إن تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلّفهم ما تكلّفهم الدينونة لغير الله وفوق ذلك كله الذلّ والدّنس والعار، وهناك ظاهرة واضحة متكررة وهي أنه كلما قام عبد من عبيد الله ليقيم من نفسه طاغوتا يعبّد النّاس لشخصه احتاج هذا الطاغوت كي يُعبد ويُطاع ويُتبع إلى أن يسخّر كل القوى والطاقات أولا لحماية شخصه وثانيا لتأليه ذاته، واحتاج حواشٍ وذيول وأجهزة وأبواق تسبّح بحمده وترتّل

ذكره وتنفخ في صورته العبدية الهزيلة لتتضخّم وتشغل مكان الألوهية العظيمة وألا تكفّ واحدة عن النفخ في تلك الصورة العبدية الهزيلة وإطلاق الترانيم حولها وحشد الجموع بشتى الوسائل... وهو جهد ناصب لا يفرغ أبدا لأن الصورة العبدية الهزيلة التي ما تَنِي تنكمش وتهزل وتتضاءل كلما سكن من حولها عن النفخ والطبل والزمر والتسابيح والتراتيل وما تَنِي تحتاج كرّة أخرى إلى ذلك الجهد... وفي هذا الجهد الناصب تصرف طاقات وأموال وأرواح أحيانا وأعراض... لو أنفق بعضها في عمارة الأرض والانتاج المثمر لترقية الحياة البشرية ولإغنائها لعاد على البشرية بالخير الوفير، ولكن هذه الطاقات والأموال والأعراض لا تنفق في هذا السّبيل الخيّر المثمر ما دام النّاس لا يدينون لله وحده، وإنما يدينون للطواغيت من دونه، ومن هذه اللمحة تتكشف مدى خسارة البشرية في الطاقات والأموال والعمارة والإنتاج من جراء تنكّبها عن الدينونة لله وحده... وليس هذا في نظام أرضي دون نظام، وإن اختلفت الأوضاع واختلفت ألوان التضحيات ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة لله وحده فأتاحوا لنفر منهم أن يحكموهم بغير شريعته قد وقعوا في النهاية في شقوة العبودية لغيره التي تأكل إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم مهما اختلفت أشكال الأنظمة التي تحكمهم والتي ظنّوا في بعضها أنها تكفل لهم الإنسانية والحرّية والكرامة.

من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية في رسالة الله سبحانه، فهي قضية لا تتعلق بعبدة الأصنام والأوثان في الجاهليات الساذجة البعيدة، ولكنّها تتعلق بالإنسان كله وفي كل زمان وفي كل مكان، وتتعلق بالجاهليات كلها، جاهليات ما قبل التاريخ، وجاهليات التاريخ وجاهلية القرن العشرين... والخلاصة التي ينتهي إليها القول في هذه القضية أن قضية الدينونة والإتباع والحاكمية هي قضية عقيدة وإيمان وإسلام وليست قضية فقه أو سياسة أو نظام، إنها قضية عقيدة تقوم أو لا تقوم وقضية إيمان يوجد أو لا يوجد، وقضية إسلام يتحقق أو لا يتحقق وكذلك فإن قضية العبادة ليست قضية شعائر وإنّما هي قضية دينونة واتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة، وإنها من أجل أنها كذلك استحقت كل هذه العناية في المنهج الرباني المتمثل في هذا الدين، واستحقت كل هذه الرسل والرسالات واستحقت كل هذه العذابات والآلام والتضحيات...)[227].

وفي سياق موضوعنا "مشروع العفو الشامل" أو "المصالحة الوطنية"؛ يجب التنبيه أن قبول المشروع لا يعبّر في جوهره عن مرحلة مؤقتة اقتضتها الظروف والضرورات – كما يدّعي أصحابها – وإنما هو استراتيجية ثابتة جديدة ومنهج جديد آخر، ومختلف كليا عن طريق الجهاد والتمكين لدين الله...

[227] أنظر الظلال: 1319/3 و 1934/4 – 1939، بتصرف.

يحمل هذا المشروع المشئوم دلالات كثيرة، أذكر منها ما يلي:

1) تجريم الجهاد والمجاهدين.

2) التوبة من الجهاد وإبطاله.

3) تضييع تضحيات المجاهدين والشهداء نحسبهم كذلك.

4) خذلان قضايا المسلمين وكسر قلوبهم، وتحطيم آمالهم.

5) خذلان الجماعات الجهادية.

6) تشويه كثير من المفاهيم المحكمة لهذا الدين.

7) تضليل العباد وصدهم عن الجهاد.

8) الركون للظلمة والكفار.

9) الرضا بالكفر وجريان أحكامه علينا.

10) "إضفاء الشرعية على الحكومات الكافرة ومؤسساتها ووسائلها، ومجرد الإعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله، هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله"[228].

11) تبرئة الكفار والمرتدين جرائمهم - 200 ألف قتيل حسب منظمة حقوق الإنسان، وبوتفليقة صرح بـ 100 ألف، و 15 ألف مختطف حسب "حركة الضباط الأحرار" و60 ألف سجين، ولا شك أن الأمر أكثر من ذلك -

12) تجرئة الكفار على المسلمين وتصويب جرائمهم.

13) يعني السقوط والإنهيار والإنسلاخ والإرتداد على الأعقاب بعد معرفة الحق... وفي الجملة هو انقلاب عن الحق ودخول في الباطل...

وفي ختام الحديث عن تكاليف الركون؛ أسجل تحذيرين لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

[228] طريق الدعوة في ظلال القران 52/2.

- التحذير الأول:

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ}.

قال ابن كثير: (أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، وذلك بسبب قولهم للذين كرهوا شرع الله سنطيعكم في بعض الأمر).

وإذا كان الأمر بهذا الحزم والخطورة؛ فما يكون القول إذا فيمن يقولون للذين تجاوزوا مرحلة الكره إلى مرحلة المحاربة والعداوة الظاهرة لشرع الله عزّ وجل: سنطيعكم في كل الأمر وكل ما تأمرون به؟! لا شك أنهم أولى في الكفر والإرتداد والخروج من الدين.

قال القرطبي: (سنطيعكم في بعض الأمر أي في مخالفة محمد والتظاهر على عداوته والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره في السر وهم إنما قالوا ذلك سرا فأخبر الله نبيه) اهـ.

وقال الطبري: (وذلك أن الله عز وجل أخبر أن ردتهم كانت بقيلهم للذين كرهوا ما أنزل الله سنطيعكم في بعض الأمر...).

قال ابن تيمية: (فهذا النوع من الموالاة كان سببا في ردة أولئك القوم)[229].

وقال ابن حزم في "الفصل": (فجعلهم مرتدين كفارا بعد علمهم الحق وبعد أن تبين لهم الهدى بقولهم للكفار ما قالوا فقط، وأخبرنا تعالى أنه يعرف أسرارهم)[230] اهـ.

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: (إذا كان من وعد المشركين الكارهين لما أنزل الله طاعته في بعض الأمر كافرا وإن لم يفعل ما وعدهم به فكيف بمن وافق المشركين الكارهين بما أنزل من الأمر بعبادته وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه من الأنداد والطواغيت والأموات وأظهر أنهم على هدى وأن أهل التوحيد مخطئون في قتالهم وأن الصواب في مسالمتهم والدخول في دينهم الباطل فهؤلاء أولى بالردة من أولئك الذين وعدوا المشركين بطاعتهم في بعض الأمر فلا يترتب لمسلم أن اتباع المشركين والدخول في جملتهم والشهادة أنهم على حق ومعاونتهم على زوال التوحيد وأهله... من اتباع ما يسخط الله وكراهة رضوانه وإن ادعوا أن ذلك لأجل الخوف فإن الله ما عذر أهل الردّة بالخوف من المشركين بل نهى عن خوفهم، فأين هذا ممن يقول ما جرى منّا شيء ونحن على ديننا)[231].

[229] المجموع: 193/28.
[230] الفصل 262/3.
[231] الدرر السنية في الأجوبة النجدية.

وأنت يا من منّ الله عليك بالثبات على الإسلام؛ احذر أن يدخل في قلبك شيء من الريب أو تحسين هؤلاء المرتدين وأن موافقتهم للمشركين وإظهار طاعتهم رأيا حسنا.

قال الشنقيطي: (إن هذه الآيات عامة في كل ما يتناوله لفظها فإن كل ما فيها من الوعيد عام لمن أطاع من كره ما أنزل الله)، ثم قال: (اعلم أن كل مسلم يجب عليه في هذا الزمن تأمّل هذه الآيات من سورة محمد وتدبّرها والحذر التام ممّا تضمنته من الوعيد الشديد لأن كثيرا ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد، لأنّ عامّة الكفار من شرقيين وغربيين، كارهون لما نزّل الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهوفي هذا القرآن، وما يبينه به النبيّ صلى الله عليه وسلم من السنّة، فكلّ من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما أنزل الله: {سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ}، فهو داخل في وعيد الآية، وأحرى من ذلك من يقول لهم: سنطيعكم في كلّ الأمر، كالذين يتّبعون القوانين الوضعية، مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزّل الله، فإنّ هؤلاء لاشكّ أنّهم ممّن تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وأنّهم اتّبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، وأنّه أحبط أعمالهم، فاحذر كلّ الحذر من الدخول في الذين قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله: {سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ})[232].

ومما له علاقة بموضوع {سنطيعكم في بعض الأمر}؛ الدخول في ولايتهم وتحت حمايتهم.

وفي هذا يقول الشيخ أبو محمد المقدسي في رسالة "وجوب نصرة المسلمين في أفغانستان/ المسألة السادسة؛ عن حكم الطواغيت وفيها": (فمن نواقض الإسلام أن يدخل المسلم مختارا تحت ولاية الكافر الدينية) اهـ.

وجاء في "الدرر السنيّة في الأجوبة النّجدية"، من "جزء حكم المرتدّ" في رد الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ على من جوّز حماية الكفّار ونائبهم – أي الدخول تحت ولايتهم وأخذ علم منهم بسلامة المال والسفينة[233] – قال: (وأمّا الدخول تحت حماية الكفار، فهي ردّة عن الإسلام، وأخذ العلم منهم لا يجوز، إذا كانوا لم يدخلوا تحت حمايتهم وولايتهم، وليس بمنزلة أخذ الخفير لحماية المال، فإنّ هذا علم وعلامة على أنّهم منقادون لأمرهم، داخلون في حمايتهم، وذلك موافقة لهم في الظاهر)[234] اهـ.

---

[232] فالآية حاكمة على الحكام المرتدّين القائلين لليهود والنصارى سنطيعكم في حرب الإسلام والمجاهدين كما هي حاكمة على أولئك الذين قالوا للحكام المرتدّين سنطيعكم في كلّ الأمر واحكموا بيننا بما شئتم.
[233] وأنت تعلم أنّ من يسموهم "التائبين" يحملون من وثائق الطاغوت ما يؤمّن لهم أرواحهم وأموالهم.
[234] راجع الثلاثينية للمقدسي, الخطأ رقم 9.

قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ به وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}، فأخبر تعالى أنّ من النّاس من يعبد الله على حرف، أي على طرف، فإن أصابه خير، أي نصر وعزّ وصحّة وسعة وأمن وعافية ونحو ذلك اطمأنّ به، أي ثبت وقال؛ هذا دين حسن، ما رأينا فيه إلاّ خيرا، وإن أصابته فتنة، أي خوف ومرض وفقر ونحو ذلك، انقلب على وجهه، أي ارتدّ عن دينه ورجع إلى الشرك، فهذه الآية مطابقة لحال المنقلبين عن دينهم في هذه الفتنة سواء بسواء، فإنّهم... ليسوا ممّن يعبد الله على يقين وثبات، فلمّا أصابتهم هذه الفتنة انقلبوا عن دينهم، وأظهروا الموافقة للمشركين، وأعطوهم الطاعة، وخرجوا عن جماعة المسلمين إلى جماعة المشركين، فهم معهم في الآخرة، كما هم معهم في الدنيا، قال تعالى: {خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}.

هذا مع أنّ كثيرا منهم في عافية، ما أتاهم من عدوّ، وإنّما ساء ظنّهم بالله، فظنّوا أن يديل الباطل وأهله على الحقّ وأهله، فأرداهم سوء ظنّهم بالله، كما قال تعالى: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[235].

- التحذير الثاني؛ التوبة من الحسنات:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (فأمّا التوبة من الحسنات، فلا تجوز عند أحد من المسلمين، بل من تاب من الحسنات، مع علمه بأنّه تاب من الحسنات، فهو إمّا كافر أو فاسق، وإن لم يعلم أنّه تاب من الحسنات، فهو جاهل ضال، وذلك أنّ الحسنات هي الإيمان والعمل الصالح، فالتوبة من الإيمان هي الرجوع عنه، والرجوع عنه ردّة، وذلك كفر، والتوبة من الأعمال الصالحة رجوع عمّا أمر الله، به وذلك فسوق أو معصية، والله تعالى حبّب إلى المؤمنين الإيمان، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، فكلّ حسنة يفعلها العبد إمّا واجبة وإمّا مستحبّة، والتّوبة تتضمن الندم على ما مضى، والعزم على أن لا يعود إلى مثله في المستقبل.

والندم يتضمّن ثلاثة أشياء: اعتقاد قبح ما ندم عليه وبغضه وكراهته، وألم يلحقه عليه، فمن اعتقد قبح ما أمر الله به إيجابا أو استحبابا، أو أبغض ذلك وكرهه، بحيث يتألّم على فعله ويتأذّى بوجوده، ففيه من النّفاق بحسب ذلك، وهو إمّا نفاق أكبر يخرجه من أصل الإيمان، وإمّا نفاق أصغر يخرجه من كماله الواجب عليه، قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}، وقال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ

[235] الدرر السنّية في الأجوبة النجدية.

يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُون * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}، وقال عزّ وجلّ: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}، بل إذا علم العبد أنّ هذا الفعل قد أمر الله به وأحبّه، فاعتقد هو أنّ ذلك ليس ممّا أمر الله وأبغضه وكرّهه، فهو كافر بلا ريب، فمثل هذه التوبة عن الحسنات هي ردّة محضة عن الإيمان، وكفر بالإيمان، قال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإيمان فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوفِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

فإطلاق القول بأن الحسنات يُتاب منها هو كفر يجب أن يستتاب صاحبه، إذ معناه أنّه يؤمر بالرجوع عن الحسنات، واعتقاد أنّ الرجوع عن الحسنات يقرّب إلى الله، وهذا كفر بلا ريب، ثمّ إنّ هذه التوبة متناقضة ممتنعة في نفسها، فإنّ التائب من الحسنات إن اعتقد أنّ هذه التوبة حسنة، فعليه أن يتوب منها فتكون باطلة فلا يكون قد تاب من الحسنات، وإن اعتقد أنّها سيّئة كان مقرّا بأنّ هذه التوبة محرّمة، فقد التزم أحد أمرين: إمّا أنّه لم يتب من الحسنات، أم تاب توبة محرّمة).

وقال أيضا: (ولم تأت الشريعة بالتوبة من الحسنات وهي ما أمر الله به من طاعته وطاعة أنبيائه)[236].

خلاصة ما سلف:

تتميما لما سلف ذكره عن عقبة المساومات في طريق الدعوة والدّعاة، أنقل لك أخي المسلم المجاهد نُتفا من أقوال دعاة عرفوا بنصرة الحقّ وأهله والثبات على الحقّ – نحسبهم كذلك ولا نزكّي على الله أحدا –:

– قال سيد قطب رحمه الله: (ولكن الإسلام – كما قلنا – لم يكن يملك أن يتمثل في "نظرية" مجردة، يعتنقها من يعتنقها اعتقاداً ويزاولها عبادة، ثم يبقى معتنقوها على هذا النحو أفراداً ضمن الكيان العضوي للتجمع الحركي الجاهلي القائم فعلاً، فإن وجودهم على هذا النحو – مهما كثر عددهم – لا يمكن أن يؤدي إلى "وجود فعلي" للإسلام، لأن الأفراد "المسلمين نظرياً" الداخلين في التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي سيظلون مضطرّين حتماً بالإستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية... سيتحركون – طوعاً أو كرهاً، بوعي أو بغير وعي – لقضاء الحاجات الأساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده، وسيدافعون عن كيانه، وسيدفعون العوامل التي تهدد وجوده وكيانه، لأن الكائن العضوي يقوم بهذه الوظائف بكل أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا... أي أن الأفراد "المسلمين نظرياً" سيظلون يقومون "فعلاً" بتقوية المجتمع الجاهلي الذي يعملون "نظرياً" لإزالته، وسيظلون خلايا حية في كيانه تمده

[236] رسالة التوبة.

بعناصر البقاء والامتداد! وسيعطونه كفاياتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا بها ويقوى، وذلك بدلاً من أن تكون حركاتهم في اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلي لإقامة المجتمع الإسلامي!)[237].

– قال محمد قطب: (إنّ المشكلة في هذه الطواغيت؛ ليست مشكلة سطحية قابلة للعلاج برش قليل من الحرية والديمقراطية عليها، إنّها أعمق من ذلك كثيرا في بنية النظام ذاته، في أعماقه لا في الأداة المنفّذة له، ولا في وسائل التنفيذ، والعلاج الأوحد ليس في مزجه بالحرية والديمقراطية، وهو أمر غير ممكن، إنّما هو تغييره من أساسه، وبالرجوع إلى منهج الله دون سواه والحكم بما أنزل الله)[238].

– قال أبو سعد العاملي: (دور الحركة الإسلامية أصلا؛ هو ليس التصالح مع الواقع القائم ولا حتما الالتقاء معه في وسط الطريق، بل دورها هو تغيير هذا الواقع القائم من أساسه وإزالته بقضّه وقضيضه، لأنّ هذا الواقع الجاهلي مناقض تماما للواقع الإسلامي المنشود... وعليه فإنّ أيّ احتمال للالتقاء مع هذا المشروع الطاغوتي في وسط الطريق غير وارد، وسيظل كلّ طرف في جهته يقاوم ويصارع من أجل البقاء ومن أجل فرض نفسه ومبادئه على المحيط الذي يتحرك فيه)[239].

– قال الشيخ المقدسي فكّ الله أسره: (توحيد ربّ العالمين لا يلتقي أبدا مع توحيد الوطنيين — الوثنيين – توحيد العشيرة والقبيلة ونحوه إلاّ في إحدى حالتين.

الأولى: أن ينحرف أهل التوحيد الحقّ عن توحيدهم ويتخلّوا عن لوازمه التي من أوثقها الحبّ في الله والبغض في الله والموالاة والمعاداة فيه.

الثانية: أو أن تبرأ العشيرة والأهل والوطن من الشرك وأهله، فيكفروا بكلّ ما يُتّبع على غير بصيرة من الأديان الباطلة والشرائع والمناهج المخالفة والمناقضة لشرع الله تعالى، سواء كانت قوانين أو دساتير أو مذاهب كالديمقراطية التي هي حكم الشعب وتشريعه وفقا للدستور، لا حكم الله وتشريعه المنزّل من القرآن)[240].

– قال أبو بصير الطرطوسي: (واعلم أنّ الله غاية عظمى لا تعلوه ولا تقدم عليه غاية، وهذا حقّه عليك يا عبد الله، فإذا حصل الاختيار بين الله تعالى وبين الأوطان والأهل

[237] معالم في الطريق.
[238] شبهات حول الإسلام.
[239] الحركة الإسلامية بين الثبات على المبادئ وضغوط الواقع.
[240] الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد الوطنيين.

والعشيرة والمال وغير ذلك من زينة الحياة الدنيا وفتنتها، فالمختار والمقدّم هو الله سبحانه وتعالى، فكلّ شيء في سبيله يهون ويرخص، وفي سبيل غيره كلّ شيء يعز ويسمو... فغيرنا يضحّي في سبيل الطاغوت ولا يبالي، فنحن أولى في أن نضحّي ونستميت في سبيل الله وحده وبخاصّة أنّنا نرجومن الله ما لا يرجون، وهذا من بديهيات لوازم الإيمان والتوحيد الذي يجب على كلّ مسلم أن يدركه وينتبه إليه، وإلاّ فإنّ دعواه الإسلام زعم لا حقيقة له، قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ})[241].

– قال محمد قطب: (والإسلام سائر في طريق القوّة على الرغم من الضربات الوحشية التي تكال له في كلّ مكان لأنّ طبائع الأشياء كلّها تؤذن بمولد الإسلام من جديد، لأنّ له اليوم دورا في حياة البشريّة لا يقلّ ضخامة ولا قوّة عن دوره الأول في صدر الإسلام. أمّا نحن فلن نجد طريقا مفروشا بالزهور، لابدّ من تضحيات كثيرة كتلك التي بذلها المسلمون الأوائل ليصنعوا العالم بما في الإسلام من خير، ولكنّها تضحيات مضمونة في الأرض وفي السماء، قال تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ})[242].

– وقال أيضا: (والمسلمون في العالم الإسلامي التقليدي يحملون تبعة باهضة أمام الله، تبعة التهاون في أمر دينهم والقعود عن أقامة مجتمعهم الراشد الذي أمرهم به الله، بل تبعة الانسياق وراء الجاهلية واتّخاذ أعداء الدّين أولياء، منهم يستمدّون مفاهيم حياتهم، بل منهم يأخذون النصيحة في أمر هذا الدّين، تبعة باهضة لا ينجيهم شيء فيها من عذاب الله... وسيقوم غدا هذا الدين وهم في هوانهم ومذلّتهم وجهلهم وضعفهم وتهاونهم، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفسهم}... ولن ينصر الله دينه على يد الضعفاء المهازيل الذين رضوا لأنفسهم الهوان والذّل، إنّما ينشئ لدينه من يريد، قوما آخرين يحملون التبعة ويقومون بها على حقيقتها، قال تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ}، ويتحمّل هؤلاء المسلمون التقليديون العار غدا حين يرون قوما آخرين يحملون راية الله وهم على هوا نهم قائمون، وسواء قام هؤلاء المسلمون من نومتهم أم ظلّوا فيها، وسواء كفّ الكيد المجنون عن الحرب لدين الله أم زاد الكيد جنونا وضراوة، سيعود الإنسان إلى الله، سيعود شديد الإيمان، فبقدر الكفر الحالي، بقدر عذابات النّاس، وبقدر ظلم الطاغوت

[241] الطاغوت لأبي بصير.
[242] شبهات حول الإسلام.

سيكون النور، وبشائر هذا النور بادية في الظلمات وغدا يشرق دين الله، قال تعالى: {وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ})[243].

هذا هو الطريق؛ طريق الجهاد والصبر والنصر...

ذكرت لك أخي المسلم؛ أنّ طلب الكافرين لتنازلات من دعاة الحقّ سنّة قدرية لا تتبدّل ومع ذلك فإنّ طلب التنازلات ما هو إلاّ مرحلة، لأنّ الكافرين لن يهدأ لهم بال إلاّ بتنازل المؤمنين تنازلا كاملا عن الحقّ والعودة في ملّة الكافرين ومناهجهم وأنظمتهم... وفي سبيل هذا فإنّ الكافرين لا يدّخرون جهدا لإرغام المؤمنين على التنازل الكامل بدءا من السجن إلى القتل والقتال، كما قال تعالى: {إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ}أي أنّ الكافرين في حال ظهورهم وقوتهم لن يقبلوا من المؤمنين إلاّ العودة في ملّتهم الكافرة وإلاّ الرجم والقتل ومثل هذه الآية قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} نفس السنّة القدرية... ولما كان التنازل أمرا غير وارد عند الرسل عليهم السلام، بل الثبات على الحقّ فهناك أهلك الله الكافرين واستخلف في الأرض المؤمنين، أهل خشية الله تعالى، وهذه هي سنّة الاستخلاف القدرية لكلّ من رفض التنازل وثبت على دينه الحقّ، خشية من غضب الله تعالى وإيثارا لما عند الله تعالى من أجر الصابرين، هنا يتنزّل النصر، قال تعالى: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، ويثمر النصر الاستخلاف والتمكين في الأرض...

وللأستاذ سيّد قطب رحمه الله كلام طيّب في آية سورة إبراهيم، يقول: (هنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية... إنّ الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقلّ، ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها، وهي لا تسالم الإسلام حتى لو سالمها، فالإسلام لابدّ أن يبدوفي صورة تجمع حركي مستقلّ بقيادة مستقلّة وولاء مستقلّ، وهذا ما لا تطيقه الجاهلية، لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسلهم مجرد أن يكفّوا عن دعوتهم، ولكن يطلبون منهم أن يعودوا في ملّتهم، وأن يندمجوا في تجمّعهم الجاهلي، وأن يذوبوا في مجتمعهم، فلا يبقى لهم كيان مستقلّ، وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدّين لأهله، وما يرفضه الرسل من ثمّ ويأبونه، فما ينبغي لمسلم أن يندمج في التجمع الجاهلي مرة أخرى... وعندما تُسفر القوة الغاشمة عن وجهها الصلد لا يبقى مجال لدعوة، ولا يبقى مجال لحجّة، ولا يُسلّم الله الرسل إلى الجاهلية... إنّ التجمع الجاهلي بطبيعة تركيبه العضوي لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله إلاّ أن يكون عمل المسلم وجهده وطاقته لحساب التجمع الجاهلي، ولتوطيد جاهليته، والذين يُخيّل لهم أنّهم قادرون على العمل من خلال التسرّب في المجتمع الجاهلي، والتميّع في تشكيلاته وأجهزته، هم ناس لا يدركون الطبيعة العضوية

[243] جاهلية القرن العشرين.

للمجتمع، هذه الطبيعة التي ترغم كلّ فرد داخل المجتمع أن يعمل لحساب هذا المجتمع، ولحساب منهجه وتصوّره... لذلك يرفض الرسل الكرام أن يعودوا في ملّة قومهم بعد إذ نجّاهم الله منها... وهنا تتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمّرة القاضية التي لا تقف لها قوة البشر المهازيل، وإن كانوا طغاة متجبّرين، قال تعالى: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِين * ولَنُسْكِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ}، ولابدّ أن ندرك أنّ تدخل القوة الكبرى للفصل بين الرسل وقومهم إنّما يكون دائما بعد مفاصلة الرسل لقومهم... بعد أن يرفض المسلمون أن يعودوا إلى ملّة قومهم بعد إذ نجّاهم الله منها، وبعد أن يصرّوا على تميّزهم بدينهم وبتجمعهم الإسلامي الخاص بقيادته الخاصة، وبعد أن يفاصلوا قومهم على أساس العقيدة، فينقسم القوم الواحد إلى أمّتين مختلفتين عقيدة ومنهجا وقيادة وتجمعا... عندئذ تتدخل القوة الكبرى لتضرب ضربتها الفاصلة ولتدمّر على الطواغيت الذين يتهدّدون المؤمنين، ولتمكّن للمؤمنين في الأرض ولتحقّق وعد الله لرسله بالنصر والتمكين... ولا يكون هذا التدخّل أبدا والمسلمون متميعون في المجتمع الجاهلي، عاملون من خلال أوضاعه وتشكيلاته، غير منفصلين ولا متميّزين بتجمع حركيّ مستقلّ وقيادة إسلامية مستقلّة)[244].

(ولقد قال الرجل فصدق، وعمل بما قال، وأبى أن يكتب كلمة واحدة يقرّ فيها للكافرين بالشرعية، ومضى إلى ربّه صابرا محتسبا، فاللّهم ارحمه رحمة واسعة)[245].

وقد كتب سيّد رحمه الله كلمات مضيئة في كتابه "معالم في الطريق" تحت عنوان "هذا هو الطريق"، رأيت أن أنقلها لك أخي المسلم.

فقال رحمه الله: (إن قصة أصحاب الأخدود – كما وردت في سورة البروج – حقيقة بأن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل جيل، فالقرآن بإيرادها في هذا الأسلوب مع مقدمتها والتعقيبات عليها، والتقريرات والتوجيهات المصاحبة لها... كان يخط بها خطوطاً عميقة في تصور طبيعة الدعوة إلى الله، ودور البشر فيها، واحتمالاتها المتوقعة في مجالها الواسع – وهو أوسع رقعة من الأرض، وأبعد مدى من الحياة الدنيا – وكان يرسم للمؤمنين معالم الطريق، ويعدُّ نفوسهم لتلقي أي من هذه الاحتمالات التي يجري بها القدر المرسوم، وفق الحكمة المكنونة في غيب الله المستور.

إنها قصة فئة آمنت بربها، واستعلنت حقيقة إيمانها... وقد ارتفع الإيمان بهذه القلوب على الفتنة، وانتصرت فيها العقيدة على الحياة، فلم ترضخ لتهديد الجبارين الطغاة، ولم تفتن

[244] في ظلال القرآن 2092/4.
[245] الحوار مع الطواغيت، للظواهري، بتصرف يسير.

عن دينها، وهي تحرق بالنار حتى تموت، لقد تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة، فلم يستذلها حب البقاء وهي تعاين الموت بهذه الطريقة البشعة، وانطلقت من قيود الأرض وجواذبها جميعاً، وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها...

وفي مقابل هذه القلوب المؤمنة الخيِّرة الرفيقة الكريمة كانت هناك جبلاّت جاحدة شريرة مجرمة لئيمة، وجلس أصحاب هذه الجبلاّت على النار. يشهدون كيف يتعذب المؤمنون ويتألمون. جلسوا يتلهون بمنظر الحياة تأكلها النار، والأناسي الكرام يتحولون وقوداً وتراباً... في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان... ففي حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة!أ فهكذا ينتهي الأمر، وتذهب الفئة المؤمنة التي ارتفعت إلى ذروة الإيمان؟ تذهب مع آلامها الفاجعة في الأخدود؟ بينما تذهب الفئة الباغية، التي ارتكست إلى هذه الحمأة، ناجية؟

حساب الأرض يحيك في الصدر شيء أمام هذه الخاتمة الأسيفة! ولكن القرآن يعلِّم المؤمنين شيئاً آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى، ويبصرهم بطبيعة القيم التي يزنون بها، وبمجال المعركة التي يخوضونها.

إنّ الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان... ليست هي القيمة الكبرى في الميزان... وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة، والنصر ليس مقصوراً على الغلبة الظاهرة، فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة.

إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة، وإن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الإيمان، وإن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة، وانتصار العقيدة على الألم، وانتصار الإيمان على الفتنة... وفي هذا الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم، وانتصرت على جواذب الأرض والحياة، وانتصرت على الفتنة انتصاراً يشرف الجنس البشري كله في جميع الأعصار... وهذا هو الانتصار... إن الناس جميعاً يموتون، وتختلف الأسباب، ولكن الناس جميعاً لا ينتصرون هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق... إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت، وتنفرد دون الناس في المجد، المجد في الملأ الأعلى، وفي دنيا الناس أيضاً. إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال!

لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد؟ إنه معنى كريم جداً، ومعنى كبير جداً، هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض، ربحوه وهم يجدون مس النار... وبعد ذلك كله هناك الآخرة، وهي المجال الأصيل الذي يلحق به مجال الأرض، ولا ينفصل عنه، لا في الحقيقة

الواقعة، ولا في حس المؤمن بهذه الحقيقة، فالمعركة إذن لم تنته، وخاتمتها الحقيقية لم تجيء بعد، والحكم عليها بالجزء الذي عرض منها على الأرض حكم غير صحيح، لأنه حكم على الشطر الصغير منها والشطر الزهيد...

هناك إشعاع آخر تطلقه قصة أصحاب الأخدود وسورة البروج حول طبيعة الدعوة إلى الله، وموقف الداعية أمام كل احتمال، لقد شهد تاريخ الدعوة إلى الله نماذج منوعة من نهايات في الأرض مختلفة للدعوات... شهد مصارع قوم نوح، وقوم هود، وقوم شعيب، وقوم لوط، ونجاة الفئة المؤمنة القليلة العدد، مجرد النجاة، ولم يذكر القرآن للناجين دوراً بعد ذلك في الأرض والحياة، وهذه النماذج تقرر أن الله سبحانه وتعالى يريد أحياناً أن يعجّل للمكذبين الطغاة بقسط من العذاب في الدنيا، أما الجزاء الأوفى فهو مرصود لهم هناك، وشهد تاريخ الدعوة مصرع فرعون وجنوده، ونجاة موسى وقومه، مع التمكين للقوم في الأرض فترة كانوا فيها أصلح ما كانوا في تاريخهم، وإن لم يرتقوا قط إلى الاستقامة الكاملة، وإلى إقامة دين الله في الأرض منهجاً للحياة شاملاً... وهذا نموذج غير النماذج الأولى، وشهد تاريخ الدعوة كذلك مصرع المشركين الذين استعصوا على الهدى والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وانتصار المؤمنين انتصاراً كاملاً... وتم للمرة الوحيدة في تاريخ البشرية أن أقيم منهج الله مهيمناً على الحياة في صورة لم تعرفها البشرية قط، من قبل ولا من بعد، وشهد – كما رأينا – نموذج أصحاب الأخدود... وما يزال يشهد نماذج تتراوح بين هذه النهايات... ولم يكن بدّ من النموذج الذي يمثله حادث الأخدود، إلى جانب النماذج الأخرى، القريب منها والبعيد... لم يكن بد من هذا النموذج الذي لا ينجو فيه المؤمنون، ولا يؤخذ فيه الكافرون! ذلك ليستقر في حس المؤمنين – أصحاب دعوة الله – أنهم قد يدعون إلى نهاية كهذه النهاية في طريقهم إلى الله، وأن ليس لهم من الأمر شيء، إنما أمرهم وأمر العقيدة إلى الله! إن عليهم أن يؤدوا واجبهم، ثم يذهبوا، وواجبهم أن يختاروا الله، وأن يؤثروا العقيدة على الحياة، وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة وأن يصدقوا الله في العمل والنية، ثم يفعل الله بهم وبأعدائهم، كما يفعل بدعوته ودينه ما يشاء، وينتهي بهم إلى نهاية من تلك النهايات التي عرفها تاريخ الإيمان، أو إلى غيرها مما يعلمه هو ويراه... إن لله حكمة وراء كل وضع ووراء كل حال... الحكمة التي تتفق مع مشيئته في خط السير الطويل.

وفي بعض الأحيان يكشف لنا – بعد أجيال وقرون – عن حكمة حادث لم يكن معاصروه يدركون حكمته... لقد كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة، وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع – وهي تبذل كل شيء، وتحتمل كل شيء – إلى شيء في هذه الأرض، ولا تنظر إلا إلى الآخرة، ولا ترجو إلا رضوان الله، قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية حتى الموت؛ بلا جزاء في هذه الأرض قريب، ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة، وغلبة الإسلام وظهور المسلمين، بل لو كان هذا الجزاء هو هلاك الظالمين بأخذهم أخذ عزيز

مقتدر كما فعل بالمكذبين الأولين!... حتى إذا وجدت هذه القلوب، وعلم الله منها صدق نيّتها على ما بايعت وعاهدت، آتاها النصر في الأرض، وائتمنها عليه، لا لنفسها، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة منذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه، ولم تتطلع إلى شيء من الغنم في الأرض تعطاه، وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه... هنالك حقيقة أخرى يشير إليها أحد التعقيبات القرآنية على قصة الأخدود في قوله تعالى: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}، حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل جيل، إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة وليست شيئاً آخر على الإطلاق، وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان، ولا يسخطون منهم إلا العقيدة... إنها ليست معركة سياسية ولا معركة اقتصادية، ولا معركة عنصرية... ولو كانت شيئاً من هذا لسهل وقفها، وسهل حل إشكالها، ولكنها في صميمها معركة عقيدة – إما كفر وإما إيمان –... إما جاهلية وإما إسلام!ولقد كان كبار المشركين يعرضون على رسول الله صلى الله عليه وسلم المال والحكم والمتاع في مقابل شيء واحد، أن يدع معركة العقيدة، وأن يدهن في هذا الأمر! ولو أجابهم – حاشاه – إلى شيء مما أرادوا ما بقيت بينهم وبينه معركة على الإطلاق!إنها قضية عقيدة ومعركة عقيدة... وهذا ما يجب أن يستيقنه المؤمنون حيثما واجهوا عدواً لهم، فإنه لا يعاديهم لشيء إلا لهذه العقيدة {إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}، ويخلصوا له وحده الطاعة والخضوع!وقد يحاول أعداء المؤمنين أن يرفعوا للمعركة راية غير راية العقيدة، راية اقتصادية أو سياسية أو عنصرية، كي يموّهوا على المؤمنين حقيقة المعركة، ويطفئوا في أرواحهم شعلة العقيدة، فمن واجب المؤمنين ألا يُخدَعوا، ومن واجبهم أن يدركوا أن هذا تمويه لغرض مبيّت، وأن الذي يغيّر راية المعركة إنما يريد أن يخدعهم عن سلاح النصر الحقيقي فيها، النصر في أية صورة من الصور، سواء جاء في صورة الانطلاق الروحي كما وقع للمؤمنين في حادث الأخدود، أوفي صورة الهيمنة – الناشئة من الانطلاق الروحي – كما حدث للجيل الأول من المسلمين.

ونحن نشهد نموذجاً من تمويه الراية في محاولة الصليبية العالمية اليوم أن تخدعنا عن حقيقة المعركة، وأن تزور التاريخ، فتزعم لنا أن الحروب الصليبية كانت ستاراً للاستعمار... كلا... إنما كان الاستعمار الذي جاء متأخراً هو الستار للروح الصليبية التي لم تعد قادرة على السفور كما كانت في القرون الوسطى! والتي تحطمت على صخرة العقيدة بقيادة مسلمين من شتى العناصر، وفيهم صلاح الدين الكردي، وتوران شاه المملوكي، العناصر التي نسيت قوميتها وذكرت عقيدتها فانتصرت تحت راية العقيدة! {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}، وصدق الله العظيم، وكذب المموهون الخادعون!)[246].

[246] معالم في الطريق، تحت عنوان؛ هذا هو الطريق، بتصرف.

تنبيهات على خيار الجهاد:

– ممّا يدخل في مسعى الجهاد، الجهاد بالمال والبيان، فربّ كلمة حقّ ينطق بها المؤمن في أجواء الجور والنفاق عند سلطان جائر كافر، تعدل ضرب السيوف...

ولكن أفضل الجهاد والمجاهدين كما قال سيّد المجاهدين وإمامهم صلى الله عليه وسلم: (أفضل الجهاد من عُقر جواده وأُهريق دمه).

– قولنا: أنّ الجهاد في سبيل الله هو الطريق الوحيد للنصر والتمكين والاستخلاف؛ لا يستلزم منه ولا يفهم إهمال بقية الوسائل الشرعية الأخرى، كالدعوة إلى الله وتربية النفس وتزكيتها، والاهتمام بطلب العلم الشرعي تعلما وتعليما والعمل على إيجاد الطليعة العريضة التي ترتفع إلى مستوى هذا الدّين... وغير ذلك من الأمور الشرعية التي تعين على بناء التجمع الإسلامي السليم... وهي تدخل في معنى ومسمى الإعداد بمفهومه العام.

– قولنا بالجهاد في سبيل الله؛ لا ينبغي أن يفهم منه الفوضى والتصرّف الفردي اللا مسؤول... أو استعجال القتال قبل استيفاء مقدماته الضرورية.

– الجهاد في سبيل الله كبقية العبادات، يشترط له الاستطاعة، فإذا انتفت وتحقّق العجز رفع التكليف... لكن لا ينبغي أن يُقعد هذا العجز المؤمن عن الإعداد للجهاد قدر استطاعته، فالمؤمن إمّا أن يجاهد أو يعدّ للجهاد عدّته وقت سقوطه العجز، فالميسور لا يسقط بالمعسور.

– شُرع الجهاد لدفع المفاسد وجلب المصالح، وأعظم المفاسد الشرك، وأعظم المصالح وأنفعها التوحيد... والواجب تقدير المصالح والمفاسد وفق ميزان الشرع وضوابطه عند الإقدام أو الإحجام.

– فشل المجاهدين في موقعة من المواقع، أو مرحلة من المراحل لأسباب قد تكون من عند أنفسهم وسوء تقديرهم للأمور، وعدم أخذهم بالأسباب المطلوبة، لا يستلزم اعتبار خيار الجهاد في سبيل الله فاشل وباطل، كما لا يلزم استعداء المجاهدين والجهاد، فالجهاد الشرعي شيء وخطأ المجاهد شيء آخر، والبراء يكون من خطأ المجاهد وليس منه أومن جهاده كما حصل مع خالد بن الوليد رضي الله عنه... والذي دعانا إلى هذا التنبيه أنّ كثيرا ممّن يُحسبون على العمل الإسلامي – أحزابا وجماعات وأفرادا – يستعْدون الجهاد وينفّرون الناس عنه، متذرّعين بواقع وفشل بعض الجماعات والحركات الجهادية أو بعض الأخطاء التي قد تكون عن غير قصد، والتي لابدّ أن يقع فيها المجاهد عندما ينزل إلى الواقع وميدان

المعركة، وهذا عين الظلم والجور ولكن لا يفهم منه الاستهانة أو التسامح بالأخطاء الناتجة عن أصول وعقائد فاسدة وأصول الخوارج الغلاة[247].

الفصل الخامس
الرسائل

* * *

الرسالة الأولى؛ إلى الأمّة... إلى الشعب الجزائري المسلم... إلى الأمة جمعاء...

إلى الأمة التي آوت ونصرت وأيّدت وبذلت المال والعون، ودفعت الضريبة باهضة من مالها ودمها وأبنائها...

إلى الأمّة المتطلّعة إلى فجر آمن... وقرية مطمئنّة... وذلك حقّها...

إنّنا نقرّ أنّ الأمن مطلب اجتماعي هامّ، قال تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}، ونحن نعلم أنّ من مقاصد الشريعة ووظائف الإمامة تحقيق الأمن في واقع الأمّة... لكن يجب أن يُعلم أنّ هذا الأمن المنشود لا يتحقّق إلاّ بالحفاظ على الضروريات الخمس، وهي: الدّين والنفس والعرض والمال والعقل، فأوّلها الدين، ومتى لم يأمن المرء على دينه لم يكن آمنا، ولا يسمّى ما هو فيه أمنا... وحفاظا على الدين شرع الله قتل وقتال المرتدّين، وجهاد الكافرين، ومن ذلك عزل الإمام الكافر وقتاله إن امتنع بشوكة، لأنّ من وظائف الإمام الحفاظ على الدين، وكيف يحافظ على الدين من هو كافر به، بل نصّ العلماء أنّ بقاء النّاس فوضى، وذهاب أرواحهم وأموالهم في الجهاد خير لهم من العيش تحت حكم الكافر، قال تعالى: {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ}، والفتنة هي الشرك كما قال المفسرون... فتأمّل رحمك الله...

---

[247] بتصرّف من رسالة الديمقراطية لأبي بصير الطرطوسي.

نحن ندرك دوافع مطالبة الكثير من أبناء أمّتنا بمّا يراه سبيلا لتحقيق الأمن... لكنّنا نطالبه بنظرة فاحصة للواقع بحثا عن قيمة ومكان الأمن فيه... إنّ المسلم في طول العالم وعرضه، والجزائر بقعة منه، لا يأمن على دينه، فهو يفتن بكلّ أنواع الفتن، ولا يأمن على عرضه وماله ونفسه وعقله... فكلّ شيء يسخّر لإفساد هذه الضروريات: البرامج التربوية، والبرامج الإعلامية، والقانون والإدارة والفنّ، حتى وزارة الشؤون الدينية، الكلّ يُسخّر لتمييع المسلم وتحطيم هذه الكلّيات التي جاءت الشريعة لحفظها، وأوجبت على الإمام الحفاظ عليها... فأين الأمن في الواقع... نعم يجب أن نعترف أنّهم يريدون أمنهم هم، وأمن مصالحهم... ليتمكّنوا من أمّتنا دون رقيب ولا حسيب ولا مقاوم، ولنا الحقّ أن نسأل: لماذا المشاريع السائرة ضدّ مصالح الأمّة لا يستفتى فيها الشعب كقانون المحروقات والأسرة، وإلغاء شعبة العلوم الإسلامية، والمدارس الخاصّة... وهلمّ جرا؟ فإذا كان الأمر هكذا: هل يليق بالعقلاء أن يقبلوا صفقة الخيانة والذلّ؟!

"إنّ جنايات الناس كُلِّهم مهما تنوعت، ومهما كبرت وعظمت، فهي لا شيء في جنب جريمة الكفر والشرك التي يقترفها الطواغيت وملؤهم، فهي – أي جريمة الشرك – أعظم جريمة اقترفت في الوجود، وجميع الجرائم الأخرى فهي دونها وتحتها وأقلّ منها، ومتفرّعة عنها، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا...}، وهل يُشكر الطاغوت المجرم المتجبّر الذي يقتل ويسجن الألوف، ويأكل حقوق الخلق، ويسرق خيرات الأمّة... ويحطّم آمالها وقيمها، إذا ما منّ على بعض فئات الشعب بشيء من الفتات... أو إذا ما قتل الألوف واستحيا من أراد... إنّ ذلك لشيء عُجاب... إنّ أعداء الله لما تركوا شرع اللطيف الخبير، الذي يعلم ما ينفع العباد، ويُصلح دنياهم وأخراهم، ورفضوا حدوده التي تحفظ عليهم دينهم ومقاصده، والمصالح التي جاء لحفظها، وشرّعوا بدلا منها قوانين وتشريعات تعمل ليل نهار على هدم تلك المقاصد العظيمة والمصالح الأساسية التي أراد الله حفظها بتشريعه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فاستبيحت الحرم، وظهر الفساد في البلاد والعباد والأموال والذراري، كلّ ذلك تحت حماية ورعاية قوانينهم الوضعية الكافرة، وبحراسة تشريعهم الشركي النّكد، فدمّروا الأمّة، وحطّموا أمجادها.

فهل يُشكر أمثال هؤلاء – مع شركهم وجرائمهم وظلماتهم، وما اقترفته أيديهم النّجسة في حقّ دين الله وتشريعه وعباده الموحّدين – إذا ما عفوا عن بعض المظلومين والمستضعفين، وإذا ما رفعوا بعض ظلمهم الكبير عن الناس لوقت ما ولظرف عندهم، مع بقاء الظلم الأكبر والجريمة النكراء التي أخبر الله تعالى أنّها أعظم جريمة في الوجود؛ {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، لا نعمة ولا كرامة ولا حمدا لكافر متجبر، يحارب الله ودينه، ويسوم المؤمنين سوء العذاب إذا ما رفع ظلمه عن القليل منهم، ليس طاعة ولا استسلاما لحكم الله وشرعه،

أو ابتغاء مرضاته، بل لتغطية جرائمه، ولترقيع باطله، وللتمويه على الطغام، ولبس الحقّ بالباطل، والنور بالظلام"[248].

يحلو للمجرمين اليوم التّباكي على الوحدة الوطنية، كتباكيهم على الأمن، وهم من نقض عراه.

وأريد أن أوضح لأمّتي تنبيها لحقائق الألفاظ ومآلاتها؛ الفرق بين توحيد الوطنيين وتوحيد المرسلين...

"توحيد الوطنيين الوثنيين أو الوحدة الوطنية الوثنية، التي تجمع بين الشيوعي والعلماني والنصراني والديمقراطي والبعثي وسابّ الربّ والدين والمستهزئ بدين الله، وتؤلّف بينهم وتجمع صفوفهم في ظلّ أيّ مصلحة مزعومة أخرى... هذا التوحيد هو توحيد الكفار أو توحيد الطواغيت أو توحيد المشركين، أو توحيد كفار قريش الذي كانوا يدعون النبي صلى الله عليه وسلم إليه ويساومونه عليه من أجل مصلحة العشيرة والقبيلة ووحدتها، ومن أجل مصلحة البلد أو المصلحة الوطنية، لكنه أبدا لن يكون توحيد المر سلين ومحال أن يكون، فتوحيد ربّ العالمين يفرّق بين أهل الحقّ وأهل الباطل، والوحدة الوطنية – الوثنية – تجمع وتؤاخي بينهم... {سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}... إنّ المطلوب الأول من المسلم الذي يريد تحقيق توحيده كاملا، هو البراءة من الشرك والمشركين وإن كانوا من أقرب المقرّبين إليه نسبا وموطنا، وإنّ بدعة الوحدة الوطنية الوثنية التي يشقشق بها كثير من الناس في هذا الزمان منافية ومضادّة للتوحيد الذي هو حقّ الله على العبيد، وبالتالي فلا يجوز العمل من خلالها أو تبنيها فضلا عن نصرتها وتأييدها وتدعيمها... إلاّ أن يحكم الوطن ويستسلم مع أهله لشرع الله، ويبرأ من شرع الطاغوت، وحين يكفر المواطنون بكلّ ما يُعبد من دون الله، ويبرؤون من الشرك وأهله ويحقّقون توحيد الأنبياء والمرسلين، عند ذلك وعنده فقط سنكون أحرص الناس على الوحدة الوطنية، ومن أخلص جنودها، وسنلقي بجميع الخلافات الفرعية خلف ظهورنا، ما دامت هذه الوحدة قائمة على أصل سليم، هو توحيد ربّ العالمين، والبراءة من الشرك والمشركين، ودون ذلك سحقا سحقا لكلّ وحدة تتعارض مع ملّة إبراهيم وتوحيد الأنبياء والمرسلين"[249].

"لقد فطن المجاهدون لكلّ أساليب الطواغيت ومخططاتهم والحمد لله، وأخذوا على عاتقهم مهمّة إصلاح الدين والدنيا بمحاربة المفسدين وتحريك الخاملين وتبصير المخدوعين،

[248] ربّ السجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه، أبو محمد المقدسي.
[249] الفرق بين توحيد المسلين وتوحيد الوطنيين، أبو محمد المقدسي.

ولتعلم الأمّة أنّنا لم نكفر بالطاغوت أو نتبرأ منه أو نعاديه هو وأولياءه، لأجل سجنهم لنا وتعذيبنا ومطاردتنا، بل لأجل سجنهم للتوحيد، وتكبيلهم للشريعة وزنزنتهم للقرآن والإسلام وإقصائه عن دفّة الحكم واستبدالهم تشريعاتهم وتشريعات أوليائهم الساقطة المتهافتة بشرع الله الواحد القهار... إنّ الخصومة معهم لم تبدأ بسبب سجننا أو تعذيبنا، ولن تنتهي بخروجنا من السجن والعذاب، وإنّما الخصومة كانت ولا زالت، لأجل شركهم وباطلهم وظلمهم العظيم، ولن تزول الخصومة بيننا وبين الطاغوت وأوليائه إن شاء الله... لن تزول إلاّ في حالة واحدة لا غير، أن يتبرؤوا من كفرهم وشركهم وقوانينهم الوضعية وتشريعاتهم الشركية، ويتبعوا شرع الله وحده، وأسوتنا في ذلك النبيون من قبل، قال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} قال المفسرون رحمهم الله: {والذين معه}؛ أي أنصاره من النبيين والصالحين الذين كانوا على طريقته، فهيهات هيهات أن نُفرّط في تلك الأسوة أو أن نحيد عن هذه الطريق أو أن نرضى بصفقة خاسرة وبيع مغبون، إنّهم يريدون منّا أن نبيع هذه الملّة العظيمة وندفعها ثمنا لحرية محدودة، أو راحة زائلة أو متعة فانية في هذه الدنيا المدْبرة"[250].

"إنّ حصر المعركة مع الطاغوت ونظامه واختزالها وكأنها مجرد خلاف ومعركة على الوظائف والأعمال الدنيوية الخاصة... هو نوع من الطعن والاستخفاف وسوء الظن بالمجاهدين وبجهادهم، وما قدّموه من تضحيات وشهداء في سبيل الله...".

"وما لم يعودوا إلى الله وشرعه"مهما بذلوا لنا من عطاء الدنيا وزينتها، فالحرب بأمر الله ورسوله، قائمة وماضية مع هؤلاء الطواغيت المجرمين الظالمين إلى أن يفتح الله بيننا وبينهم بالحق – رضي من رضي وكره من كره –... إنّ ما يُمنّون به المجاهدين إن تركوا الجهاد وصالحوا النظام، إنّما هو كمين واستدراج منهم للمجاهدين عسى أن يجرّبوا طعم الركون إلى الذلّ والهوان، وحياة الخمول والكسل، فيصعب عليهم بعد ذلك النهوض من جديد للجهاد وتحمّل تبعاته... وهذا الذي يريده النظام ويسعى له"[251].

لقد رفضت جبهة التحرير مساومات فرنسا، ورفضت مشروع ديغول؛ "سلم الشجعان" ووقف الشعب مساندا لها... وجاء الاستقلال، فهل كانت جبهة التحرير يومئذ مخطئة ومجرمة حين رفضت الاستسلام لفرنسا؟! وها هو التاريخ يدور دورته... ويحرم الشعب من ثمار الاستقلال، وينفرد أهل النفوذ بخيرات البلاد... ويتحول حكام البلاد إلى عملاء موظفين عند اليهود والنصارى، وتنتهك حرمة الدين والأمّة، استعمار في ثوب جديد...

---

[250] ربّ السجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه، أبو محمد المقدسي، بتصرّف.
[251] ردّ أبي بصير الطرطوسي على محمد سرور زين العابدين.

وحين نحمل السلاح، وذلك حقّنا، بعد أن فشلت السياسة مع أبناء الاستعمار، كما فشلت مع الاستعمار... ويُعرض علينا مشروع ديغول بثوب المصالحة الوطنية والعفو الشامل... ونحن نرفضه جملة وتفصيلا – طبعا هناك من يُخطّئنا كما خطّأ "جبهة التحرير" –...

لكنّنا نقول لهم:

ستبيّن لكم الأيام وأحداثها صدق قرارنا، وقد عودناكم أنّنا لا نبالي بالصعاب... إنّنا نتمنى أن تعود الأمّة بكافة شرائحها إلى دينها، ونتجنّد جميعا في صف وخندق واحد ضدّ أعداءنا من اليهود والنصارى وحلفائهم، مع علمنا؛ أنّ دون لعق الشهد إبر النحل... ومن هاب صعود الجبال عاش أبد الدهر بين الحفر.

أيتها الأمّة الغالية:

مع ما يعيشه المسلمون من غزو عسكري وثقافي يرمي إلى سلخها عن دينها وأخذ ثرواتها واستعبادها، "كيف يمكن أن نقبل الدعوات الداعية إلى إخلاء الميدان أمام أعداء الأمّة المسلمة؟ كيف يمكن أن نسكت عن سعيهم في حرمان المسلمين من حقّ مقاومة أعدائهم، وهو الحقّ الذي يمارسه كلّ البشر؟ كيف يمكن أن نسكت عن تثبيطهم والأمّة تملك هذا المدد الهائل من الإمكانات والمجاهدين الصادقين؟ كيف يمكن أن نسمح لهذه الدعوات أن تسري بيننا وقد تعدّى المجرمون علينا بكافة أنواع التعدّي، ولم يرقبوا فينا حرمة ولا خلقا ولا إلاّ ولا ذمّة؟

إنّ أيّ مسلم حريص على انتصار الإسلام، لا يمكن أن يقبل أيّ نداء إلى إيقاف الجهاد أو تعطيله، أو صرف الأمّة عنه، رغم وجود كلّ هذه الإمكانات التي أشرنا إليها... ولا نكتفي فقط برفض أيّة دعوة لإيقاف الجهاد، بل إنّنا ندعو الأمّة بجميع طوائفها وشرائحها وفئاتها إلى الانضمام لقافلة الجهاد والسير في طريقه والتنافس في القيام به، والنكاية في أعدائها.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي

جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ}"[252].

أيتها الأمة المسلمة:

بكلّ صراحة... فإنّ استحضار واقع الأمّة المزري، واستحضار تمادي الطواغيت في البطش بالأمّة، وازدراءها وحربها في ثوابتها... يجعلنا نتساءل: هل يجوز لنا أن نغفو عنهم لا أن نقبل عفوهم؟

والله بيننا وبينهم وهو خير الفاتحين.

* * *

الرسالة الثانية؛ إلى أهل العلم والقلم... أهل الدعوة والسياسة...

"إنّ القيم والأقدار وآثارها الحسان الممتدّة على مسارب الزمن لا تقوم بالجاه والمنصب والمال والشهرة وكيل المدائح والألقاب، وإنّما قوا مها وتقويمها بالفضل والجهاد وربط العلم بالعمل مع نبل نفس وأدب جمّ وحسن سمت، فهذه وأمثالها هي التي يوزن بها الرجال والأعمال"[253]...

وليس العلم بكثرة الرواية، إنّما الخشية، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} فبالعلم يرفع الله أقواما، قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}، ويضع آخرين، قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ...}... ومن هنا ترى أنّ العلم قد يحمله الطيّب وقد يحمله الخبيث، وانقسم حملة العلم إلى علماء دين وملّة، وعلماء سلطان وضلالة، والمعصوم من عصمه الله، والقرآن حجّة لك أو عليك...

[252] الولاء والبراء عقيدة منقولة وواقع مفقود، الدكتور أيمن الظواهري.
[253] تصنيف الناس بين الظنّ واليقين، لبكر أبي زيد: ص7.

ذكر شيخ الإسلام في القواعد الفقهية أنّ المجتهد قد يشوب اجتهاده هوى فيكون له من الإثم بقدر ذلك الهوى، وهذا لا يكاد يسلم منه أحد في دقائق المسائل، كما قد يقع في الأصول الكبار عند الفتنة... ولانضباط أدلّة الكتاب والسنّة وصعوبة تحريفها كان أغلب ما يخوض فيه هؤلاء باب المصلحة والمفسدة والتعلق بالنتائج العاجلة.

إنّ اتباع الهوى يعمي ويصمّ...

"تعاموا عن كلّ ما يجتاب ديار المسلمين ويخترق آفاقهم من الكفر والشرك والزندقة والإلحاد، وفتح سبل الفساد والإفساد، وما يفد كلّ صباح ومساء من مغريات وشهوات وأدوات وشبهات تنتج تكفير الأمّة وتفسيقها وإخراجها نشئا آخر منسلخا عن دينه وخلقه..."[254].

تعاموا عن كلّ هذا وسلم منهم عبدة الطاغوت، أعداء الأمّة والملّة، وسلقوا إخوانهم بألسنة حداد، فكانوا أحقّ بوصف الخوارج... ما تركوا لمزا وبهتانا إلاّ ألصقوه بالمجاهدين، وهذا البهتان قد يوجب ردّة للقائل نفسه كما قال لمن عمل بالإسلام: رجعي، متخلّف، كما ترى تقريره في أبواب الردّة من كتب الشريعة الحديثية والفقهية[255]...

إنّ الخصم الشريف لا يرضى لنفسه أن ينازل خصما ضعيفا، ولا أن يطعن خصمه في الظهر... حين ضعفت شوكة الجهاد، أجلبتم بخيلكم ورجلكم بألسنة حداد تلفح ظهور المجاهدين، تهرولون إلى أحضان الطواغيت، تستجدون بأعراض ولحوم إخوانكم غنيمة باردة... لا عن قناعة شرعية أو حنكة سياسية... قال تعالى: {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا}، والأيام دول والحرب سجال.

قال ابن أبي العزّ – شارح الطحاوية –: (وإن كان العبد عاجزا عن معرفة بعض ذلك أو العمل به، فلا ينهى عمّا عجز عنه ممّا جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، بل حسبه أن يسقط عنه اللوم لعجزه، ولكن عليه أن يفرح بقيام غيره ويرضى بذلك، ويود أن يكون قائما به).

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ}، قال رحمه الله: (فليس على هؤلاء

---

[254] تصنيف الناس: ص39.
[255] تصنيف الناس: ص24

حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ولم يُرجفوا بالناس ولم يُثبطوهم وهم محسنون في حالهم...) اهـ

لكن واقعكم "حشف وسوء كيل"؛

أقلّوا عليهم لا أبا لأبيكمو أو سدّوا المكان الذي سدّوا

"وفي مجمع الأمثال: (أجبنا وغيرة؟!)، بل أجبنا وحسدا؟! قد قعدتم وأخلدتم إلى الأرض، وبعتم الدين والعرض، بل والشرف والمروءة، وتبرّأتم من دينكم وجهاده، واستحييتم من تبنّي حدوده وخجلتم من شرائعه... ويتمنى كثير منكم لو أمكنه حكّ آيات الحدود، وغسل نصوص الجهاد وإزالتها من قرآنه.

فبأيّ حقّ يجوز لكم بعد هذا أن تتكلّموا عن الجهاد، وتُنظّروا في ثمراته، أو تزاودوا على شهدائه وأبطاله؟ أو يمكن أن تصير النائحة الكاذبة المستأجرة في حال من الأحوال أصدق وأخلص من النائحة الثكلى.

اسمعوا أيها المنهزمون:

المجاهدون ليسوا بحاجة إلى تنظيركم المتهالك تحت أقدام حضارة الغرب الزائفة ولا لتحليلاتكم المندحرة والمنهزمة تحت دساتير الأنظمة العميلة، وأسيادها في واشنطن ولندن وباريس وبرلين... المجاهدون ليسوا بحاجة إلى أشباه رجال أو إلى مفكرين مدجنين مخنثي العزائم أو إلى علماء عملاء مأجورين منهزمين ليستفتونهم قبل كلّ عمل جهادي، أو يستشيرونهم: هل هذا يناسب أفكاركم وعقلكم المعيشي؟ وهل يصلح القيام به حسب تنظيركم أو لا يصلح؟ لا، فهم ليسوا بحاجة إلى ذلك، وعندهم من الفقه والبصيرة ما يغنيهم... فموتوا بغيظكم أيّها المندحرون، وواصلوا نقدكم للمجاهدين وجهادهم أو كفّوا، فالأمر عندنا سيّان، ولن تفتّوا بذلك أبدا من عضد المجاهدين، ولن تؤثر أقلامكم المسمومة بجهادهم بإذن الله، كما لم يؤثّر فيه حديد ونار أسيادكم وحربهم وحرابهم"[256]...

التثبيط والإرجاف والتخذيل، نعوت خسيسة لو اتّصف بها العوام الأمر يهون، أمّا أن يكون العلماء والنخبة هم رأس الحربة في هذه المهمة الدنيئة، هذا هو الغريب المستغرب...

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (قال العلماء: كان من المنافقين من يرجع من الخندق فيدخل المدينة، فإذا جاء أحدهم قالوا له: ويحك أجلس فلا تخرج، ويكتبون بذلك إلى

[256] الكلاب تنبح والقافلة تسير لأبي محمد المقدسي.

إخوانهم الذين بالعسكر، أن ائتونا بالمدينة فإنّا ننتظركم، يثبطون عن القتال... قال الله فيهم: {فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ}، وهذا السّلق بالألسنة يكون بوجوه: تارة يقول المنافقون للمؤمنين: هذا الذي جرى علينا بشؤمكم، فإنّكم أنتم الذين دعوتم الناس لهذا الدين وقاتلتم عليه وخالفتموهم، فإنّ هذه مقالة المنافقين للمؤمنين من الصحابة، وتارة يقولون: أنتم أشرتم علينا بالمقام هنا والثبات بهذا الثغر إلى هذا الوقت وإلاّ لو كنّا سافرنا قبل هذا لما أصابنا هذا، وتارة يقولون: أنتم مع قلّتكم وضعفكم تريدون أم تكسّروا العدوّ وقد غرّكم دينكم... وتارة يقولون: أنتم مجانين لا عقل لكم، تريدون أن تهلكوا أنفسكم والناس معكم، وتارة يقولون أنواعا من الكلام المؤذي الشديد)[257].

وقال في صفحة أخرى: (وهكذا لما قدم هذا العدوّ كان من المنافقين من قال: ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم، فينبغي الدخول في دولة التتار، وقال بعض الخاصّة: ما بقيت أرض الشام تُسكن بل ننتقل عنها، إمّا إلى الحجاز واليمن وإمّا إلى مصر، وقال بعضهم بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء كما استسلم لهم أهل العراق والدخول تحت حكمهم) اهـ.

وما أشبه اليوم بالبارحة، والله المستعان.

من المؤسف حقّا أن تتهاوى رموز الطلائع، يسبّحون بحمد الطواغيت ويباركون مشاريعهم المشؤومة منادين بالمصالحة. تنادون بها على أيّ أساس... على أساس أن يكون الدين كلّه للطاغوت كما هو سائد ومعمول به، أم على أساس أن يكون الدين كلّه لله. تزيّنون الركون للطواغيت الظالمين والدخول في موالاتهم وطاعتهم... اتّقوا الله. أهذا الذي تلقون عليه الله بعد أن علاكم الشيب وبلغتم من العمر عتيّا؟!

الواجب على أهل العلم حفظ العلم وتبليغه، وترك أهل العلم لتبليغ العلم الواجب عليهم كترك أهل القتال للقتال الواجب عليهم... وإذا سكت العالم تقية ومصلحة، متى يظهر الحقّ -كما قال الإمام أحمد؟! –

إلى متى تتهرّبون من إسقاط الأحكام على الواقع... لقد أجرمتم يوم سكتم عن قول الحقّ... وأجرمتم يوم حرّفتم الكلم عن مواضعه، وها أنتم تضيفون سيّئة إلى سيّئاتكم جزاءا وفاقا، وتدعون إلى الديمقراطية الكافرة والدخول تحت حكم عبّادها... عجيب أن تمجّدوا في كتبكم وخطبكم مواقف سعيد بن جبير وأحمد بن حنبل وابن تيمية رحمهم الله وغيرهم من علماء الملّة ثمّ تتأسوا في واقعكم بابن باعوراء وابن العلقمي الرافضي... كان وزيرا للخليفة العباسي الذي استوزره ووثق به، وبدلا من الوفاء للأمانة المناطة به في حفظ الدولة والمنافحة عنها، فإنّه راح يتآمر مع التتار لاحتلال بغداد وإسقاط الخلافة بتسريح الجيش وإفراغ

[257] المجموع: 456/28 458 بتصرّف.

الثكنات، حتى إذا تهيأ الجو لغزو العراق كاتب التتار... ومع كلّ ما قام به هذا الخبيث من تآمر وخيانة لدولة المسلمين إلاّ أنّ الله تعالى لم يهمله طويلا، فقد أذلّه الله تعالى على يد التتار أنفسهم بعد أن قضوا به حاجتهم ومات في غيظه وكمده، قبّحه الله... ابن العلقمي هو الذي استقبل هولاكو وجيشه أثناء دخول بغداد وهو الذي أشار على الخليفة بالذهاب إلى هولاكو لغرض المصالحة، بغية الإيقاع به، وحين ذهب الخليفة مع سبعمائة راكب من القضاة والأمراء والأعيان، حجبوا عن الخليفة إلاّ سبعة عشر نفرا وقتل الباقون عن آخرهم، وقتل الخليفة رفسا بالأقدام... يا حملة العلم ويا روّاد السياسة أترضون بخيانة ابن العلقمي ونهايته{لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ *كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}.

وهاكم شهادة الجاسوس الفرنسي "ليون روش"[258] في كتابه اثنان وثلاثون سنة في الإسلام أصدره سنة 1884م بعد أن ادّعى الإسلام وتسمّى "الحاج عمر بن عبد الله" يقول: (اعتنقت الإسلام زمنا طويلا لأدخل على الأمير عبد القادر الجزائري دسيسة من قبل فرنسا، وقد نجحت في الحيلة... ثمّ بحثت عن تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالا وكرما... إنّه دين المحامد والفضائل، ولو وجد رجالا يعلمونه الناس حقّ التعليم ويفسرونه تمام التفسير لكان المسلمون اليوم أرقى العالمين، ولكن وجد بينهم شيوخ يحرّفون كلمه ويمسخون جماله، ويدخلون عليه ما ليس منه، وإنّي تمكّنت من استغواء بعض هؤلاء الشيوخ في القيروان والإسكندرية ومكّة، فكتبوا إلى المسلمين في الجزائر يفتونهم بوجوب الطاعة للفرنسيين، وبأنّ لا ينزعوا إلى الثورة وبأنّ فرنسا خير دولة أخرجت للناس، ومنهم من أفتى بأنّ فرنسا دولة إسلامية أكثر من الدولة العثمانية، وكلّ ذلك لم يكلّفني إلاّ بعض الآنية الذهبية.

انّ هذه الفتوى التي أشرف على المصادقة عليها أمير مكة يومئذ، والتي قرئت في الأسواق والخيام ومجالس الصوفية، قال عنها فرنسي آخر: (إنّه – أي روش – بهذه الفتوى قدم أكبر خدمة للهيمنة الفرنسية على الجزائر)، فتأمّلوا...!

لقد كثرت تلبيساتكم الشيطانية... زعمتم أن الجهاد في سبيل الله لا يأتي منه إلاّ الفساد والشر، وأنّه أضر بمصالح المجتمع... وهذا الزعم من قبيل ظن السوء بالله تعالى وبشرعه ودينه، وكان الأولى أن تظنّوا ذلك بأنفسكم، وأنّ الشر يأتي من أنفسكم الأمّارة بالسوء... إنّكم أعلم من غيركم بانتشار الفساد والانحلال وسريان الأفكار والدعوات الهدامة في المجتمع تحت حماية أولي أمركم... الواقع فساد في فساد، والذي يرقى إلى درجة الكفر المغلظ والمركب، هذا الفساد المسؤول عنه أولا وآخرا الحاكم... وليس المجاهدون.

[258] سبق ذكره في المثال الأول من المساومات.

هؤلاء المفسدين المجرمين، الذين أساءوا للبلاد والعباد، وساموهم سوء الذلّ والكفر هم السلطة الحاكمة. هم من تطالبوننا بالمصالحة معهم والركون إليهم والدخول في طاعتهم... لقد تبنّى جيش الإنقاذ هذا الخطاب ووضع السلاح، فماذا كانت النتيجة؟ مزيدا من الذلّ والكبت والفساد والظلم والكفر والفجور[259].

إنّ الثابت أنّ الشر كلّ الشر يكمن في تخلي المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: {كتبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} هو خير رغم ما يترتب عليه من آلام وجراح وقتل وقتال لأنّه يندفع به ضرر أكبر، فهومن هذا الوجه خير راجح{وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ}، وهو الركون إلى الدنيا وترك الجهاد لما يترتّب عليه من مفاسد عظيمة، فإن بدا لكم خلاف، فاعلموا أنّ {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[260]...

إنّ التعلل بالمصالح حديث تتضح فيه المصلحة بذكر ضوابطها، وهي:

- أن تكون ضرورية مستندة على الضروريات الخمس.
- أن تكون كلّية منفعتها لكلّ المسلمين.
- أن تكون قطعية لا تبطل دليلا أو أصلا آخر.
- أن لا يفضي الأخذ بها إلى مفسدة أعظم منها أو مساوية لها.
- أن لا يفضي الأخذ بها إلى تفويت مصلحة أعظم منها أو مساوية لها.

ويبقى لمن أراد القول بالمصلحة؛ أن يحقّق ركنا مهمّا من ركني القول بها، وهو فقه الواقع للحالة التي يريد تحديد المصلحة والمفسدة لها، لكي يتحقّق المناط في محل الفتوى قبل إنزال الفتوى عليها... وأنتم تعلمون أنّ أعظم مفسدة هي الشرك، وأنّ المصلحة المفضية إلى تعطيل الجهاد بالكلّية لاغية، قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنفسهم ظُلْمًا وَعُلُوًّا}.

قال الشيخ سليمان بن سحمان: (... وذلك أنّك جعلت الأمر المسوّغ للدخول في طاعتهم هو استجلاب مصالح المسلمين وإعزاز أهل الدين... وقد ذكر أهل العلم أنّ درء

[259] ولو فعل البقية الباقية من المجاهدين صمام الأمان للبلاد والعباد نفس الخيانة فإنّ الأوضاع لن تزداد إلاّ سوءا وخرابا وفسادا... حيث لم يعد يبقى أمام طواغيت الحكم من يحسبون له أيّ حسابا, فيزدادون طغيانا وظلما.

[260] أنظر الرد على السرور والرد على مبادرة الجماعة الإسلامية المصرية لأبي بصير الطرطوسي.

المفاسد مقدّم على جلب المصالح، فدرء مفسدة قمع أهل الحقّ، وعدم إظهار دينهم واجتماعهم عليه والدعوة إلى ذلك، وعدم تشتيتهم وتشريدهم في كلّ مكان مقدم على جلب مصلحة الإنكار على ولاّة الأمور مع قوتهم وتغليبهم وقهرهم وتغلّبهم، وعجز أهل الحقّ عن منابذتهم وإظهار عداوتهم والهجرة عن بلادهم، بمجرد الدخول في طاعتهم في غير معصية الله ورسوله... وإذا كان الحال على ما وصفنا، فمراعاة درء مفسدة قمع أهل الحقّ وتشريدهم وتشتيتهم وإذلالهم، وإظهار أهل الباطل باطلهم وإعلاء كلمتهم على أهل الحقّ، واحترامهم وعدم معارضتهم؛ مقدم والحالة هذه على مصلحة الإنكار على ولاّة الأمور من غير قدرة على ذلك، لأجل تغلّب أهل الباطل وعجز أهل الحق عن منابذتهم، وعدم تنفيذ الأمور التي يحبها الله ويرضاها... وزيّن لكم الشيطان الاستدلال بصلح الحديبية – فقد أبعدتم النجعة – فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن في ولايتهم ولا صالحهم على الدخول فيها، بما التزمه لهم وأجابهم فيه بما يعظمون به حرمة من حرمات الله، فأين هذا ممّا أنتم فيه؟ فإنّ الولاّة المذكورين لم يكن بينهم وبينهم مصالحة ولا طلبوا أمرا يعظمون به حرمة من حرمات الله، فتجيبوهم إلى ذلك وتعينوهم عليه فما وجه الاستدلال بكلام ابن القيم لذلك، والحالة غير الحالة؟!)[261].

زعمتم أنّ الجهاد وصل إلى طريق مسدود.

وعين الرضى عن كلّ عيب كليلةٌ　　　وعين السخط تبدي المساوئا

فها هي جماعاتكم وأحزابكم وجمعياتكم ودعواتكم مرت عليها عقود تلو عقود ولم تقم للإسلام دولة، والإسلام يتميع في النفوس والأسر والمجتمعات ووصلتم إلى طريق مسدود ومصدود، فلم لا تراجعون أنفسكم وتغيّروا مناهجكم؟... وها هو الطاغوت، تتغير الحكومات تلو الحكومات، وبرامج تدفع برامج، والأمة من درك إلى درك أسفل منه، لم لا تقولون عنها أنّها وصلت إلى طريق مسدود، وتطالبوها بالتخلي عن الحكم؟... ليتكم كما طالبتمونا بوضع السلاح، طالبتم الطاغوت أن يتوب من شركه وظلمه، ويعود إلى حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم... ليتكم تعترفون أنّكم اليوم تتكلمون وتتقوّتون من تضحيات المجاهدين وثباتهم... وليتكم تعترفون أنّ من أسباب ما وصل إليه الجهاد خذلانكم للمجاهدين ووقوف بعضكم في عدوة المرتدّين، ولو قُدّر – لا قدّر الله – أن أُخمد الجهاد فستتجرّعون المرّ أضعافا مضاعفة.

و إذا السياسة لم تفوّض أمرها　　　للنّاركانت خدعة وتصنّعا
إنّي رأيت الكون يسجد خاشعا　　　للحقّ والرشاش إن نطقا معا

[261] أنظر الأجوبة النجدية.

وإن كان لابدّ من كلمة لأهل السياسة، أصحاب المطالبة والمغالبة فأقول:

إنّ رفع شعار الإسلام والتحدّث باسمه وباسم الأمّة، خطوة لها ما بعدها... لقد وعدتم وزمجرتم... وحين قعقع السلاح... انكشف الحال، فكانت جعجعة بلا طحين، وتركتم الأمّة تدفع الثمن، بخلتم بمالكم وأرواحكم وأبنائكم، وكأنّ دوركم ينتهي بخطبة رنانة، أو ينتهي بانتهاء دورة الخريف والربيع، وأخذ المرتّبات... إنّ موازين القوي في العالم تغيرت، ومخطّطات الأعداء تعزّزت، وسيوف الجهاد سلّت، وعقلية اليوم غير عقلية التسعينات، فأفيقوا إن أردتم أن لا يفوتكم القطار...

"إنّ الإسلام مراحل وأطوار، منها طور الجهاد... وكلّ مرحلة توصل للتي تليها، فإن أردتم أن تسقطوا مرحلة سقطتم، لقد عجزتم أن تواصلوا الطريق بالأمّة إلى منتهاه... لا تبحثوا عن المعاذير... وقولوها بصراحة: أصابنا الوهن... وكفّوا عن الحديث باسم الأمّة التي خذلتموها، كفّوا... وافسحوا الطريق لطلاّب الشهادة... نعم، إنّ المسلمين يمرّون في هذا العصر بحال من الضعف وتسلط الأعداء شديد وهم لا يملكون من القوة والعتاد ما يمكنهم من البدء بقتال الكافرين وتحقيق النصر عليهم ومع ذلك لا يزالون يملكون من القوة والسلاح ما يمكن بعضهم من الإستمرار في الجهاد ولو بمعناه الدفاعي... ومن أمضى الأسلحة التي لا يزال يملكها المسلمون سلاح الشهادة ذلك السلاح الذي لا يزال مع قدمه يطاول أعتى ما اخترعته قوى الشر من وسائل الفتك وأدوات التدمير إنّه السلاح الذّي لا يمكن لتقنيتهم أنّ تخترع له مضاد... فصار قصار النظر هم الذّين لا يرون في ذلك إلاّ نوعاً من الإلقاء إلى التهلكة... أما أهل العلم والفقه فيعلمون أنّ إهلاك النفس في سبيل الله هو السبيل إلى إحيائها الحياة الحقيقية... فيا أيّها المتريثون لا بأس أنّ تبقوا على تريثكم واعتدالكم، ولكن أفسحوا الطريق لطلاب الشهادة الساعين في تكميل مهر الحور العين فإن لم تكونوا لهم معينين فلا أقل من أن لا تكونوا من المثبطين المخذّلين وإلاّ فلستم من الناصحين الذّين عذرهم الله في قعودهم وتركهم جهاد الكافرين"[262].

ومن بقيت فيه جذوة الإيمان ونخوة الرجولة أقول: "إنّنا نمد أيدينا لكل مسلم حريص على انتصار الإسلام حتى يشاركنا في خطة لإنقاذ الأمة من واقعها الأليم ترتكز على البراءة من الطواغيت ومعاداة الكافرين وموالاة المؤمنين والجهاد في سبيل الله، خطة عمل يتنافس فيها كل حريص على الإسلام في دياره ثم نشر دعوته بين العالمين"[263].

---

[262] مراحل تشريع الجهاد101106 بتصرف.

[263] الولاء والبراء للظواهري.



الرسالة الثالثة؛ إلى الطغاة... المستكبرين منهم والمستضعفين...

الطاغوت من الطغيان وهو مجاوزة الحد، كلمة نتنة برائحة المكر والخيانة والبطش... وعلى مرّ الدّهور يحمل صف الطغاة الملأ المستكبرين والعوام المستضعفين... وكلهم طغاة حكمهم عند الله ورسوله واحد. {إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}

أما أنتم أيها الملأ الذّين استكبروا من رجال السياسة والثقافة والجيش...

يا من رضعتم لبان الكفر وتنكرتم لدينكم وأمتكم... يا من رضيتم أن تكونوا في صف وعدوة الكافرين جنوداً مذللين. رضيتم أن تكونوا سياطاً تلفح ظهر الأمة، وحبالاً تخنق صوتها، ومعاول تهدم كيانها، وجراثيم تلوث جوّها، يا من ترفضون صوت الحق ومنطق العقل والحكمة.

يا من أعلنتم الحرب على الإسلام والمسلمين، واستعبدتم الناس وأذللتموهم...

إنكم لا تفهمون إلا منطق القوة ولا تسمعون إلاّ صوت الرصاص، إنكم لا تقرؤون كتاب ربكم ولكن تقرؤون كتاب ميكيافيلي ولا تنصاعون لمبدأ الحق أحق أن يتبع، ولكنكم تعتمدون سياسة الغاية تبرّر الوسيلة، ومادمتم كذلك فإنّي أقول لكم حكمة فاعقلوها، لستم أول الطغاة، ولا أول من حارب الله عز وجل... وأنتم تتحدثون عن التجارب ادرسوا تجربة عاد وثمود وفرعون وتجارب اليهود والنصارى والتتار... وتجارب الروس والصرب... لكل زمن فرعون ولكل فرعون موسى، لقد كان القرآن أقوى من فرنسا باعترافها وسيبقى أقوى من أذنابها. {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}... {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ}، وما الحياة والدنيا وتداول أيامها إلاّ فصل يسير من فصول المعركة بين الحق والباطل وعند ربك تجتمع الخصوم.

وأما أنتم أيها المتمسلمون المستضعفون، يا من سخرتم كالخراف تقدم قرابين من أجل سعادة وراحة الأسياد...

ها أنتم ترون حكامكم يحالفون اليهود والنصارى في حرب الإسلام والمسلمين... اليهود والنصارى الذين يستهينون الإسلام والقرآن ويذلون ويقتلون المسلمين. هاأنتم ترون حكامكم يحاربون أمتكم في دينها ودنياها ومروءتها بل وحقها في العيش الكريم. ها أنتم ترون

حال الأمة من سيئ لأسوء وحال الأسياد من ثراء إلى ثراء... إنّني أعلم أنكم تدركون أكثر من هذه الحقائق والمعاني... لكن إلى متى ترضون لأنفسكم البقاء عصيّاً يضرب بها أسيادكم الطواغيت أبناء الأمة... إلى متى ترضون لأنفسكم الموت من أجل حياة هؤلاء الكفرة المجرمين... أقرءوا القرآن الكريم وحديث الرسول الأمين، ألستم تدعون أنكم مسلمون أقرءوا لتدركوا.

أن حكامكم كفروا والواجب جهادهم بالسلاح... حكامكم كفروا بتحكيم غير شريعة الله... كفروا بتولي اليهود والنصارى... وأنكم كفرتم بتولي هؤلاء الحكام الكفرة... اقرءوا لتدركوا أنكم ستموتون... والأشرف لكم أن تموتوا في سبيل الله لا في سبيل الطاغوت... وستقفون وأسيادكم بين يدي الله وتقولون؛ {رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا}، ويقول سادتكم؛ {أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ}، وتقولون أنتم؛ {لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا}، ولكن ولاة حين مناص.

أيها المسخرون:

{الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ}، في سبيل من تقاتلون؟... الموت مرة... وتباً لخبزة ملطخة بدماء الأبرياء... وما أشرف القتال والقتل في سبيل الله.

أفيقوا قبل فوات الأوان... حرروا عقولكم من الخوف أنصروا الحق واعلموا أنه لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم... قيل لخالد رضي الله عنه حين أسلم: (أين كان عقلك يا خالد عن نور الإسلام؟)، فقال رضي الله عنه: (قلدنا ديننا رجالا كنا نرى أحلامهم كالجبال).

أفيقوا وعودوا إلى دينكم وأمتكم، وستجدوننا كما وجد خالد رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن كنتم تريدون السلام والصلح، فأقول لكم؛ {تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}... وإن اخترتم الحرب فأنتم وما أردتم، وقد جرّبتم وعرفتم والحرب أيام ودول، لكن احفظوا كلمة حيي بن أخطب حين قدّم ليقتل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من يغالب الله يُغلب).

أنتم وأسيادكم... يا من رضيتم بإمامة إبليس... سيخطب فيكم في نار جهنم {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

* * *

الرسالة الرابعة؛ إلى ضحايا المصالحة...

غالبا ما يحاول المنهزم أن يستر سوأته بأعذار هي أقبح من ذنب... وبيادق المصالحة يتعللون بأن الخيار الجهادي فشل وجاء بالمفاسد... ورضوا بوضع السلاح مقابل رفع حكم السجن والإعدام عن أنفسهم فقط لا عن جميع إخوانهم... وهم يوم وقعوا على عقد الذل والخيانة لم يكونوا في موقع يمكنهم من المطالبة بالحقوق إنما هو فتات "حق الماء والهواء" الذي تبرع به الطاغوت عليهم... حق تشاركهم فيه الحيوانات والحشرات... أما حديثهم عن الحقوق فجعجعة بلا طحين وإلاّ فليرونا طحينهم...

وعلى فرض صحة هذا الزعم وأنهم حققوا شيئا يذكر، فأقول لهم: (نعم وقف الإعتقالات والتعذيب الوحشي الذي يمتهن آدمية الإنسان... وإرجاع الحقوق المسلوبة لأصحابها... مطلب شرعي نطالب به الأنظمة الظالمة... ولكن المطلب الأهم والأعلى الذي لا يمكن تجاوزه أو غض الطرف عنه هو الحكم بشرع الله تعالى، لا بشرع الطاغوت، وأن تساس الدنيا بدين الله لا بدين الطاغوت، وأن تكون الكلمة العليا لله تعالى وحده، وليس للطاغوت... هذا الذي نريده ولأجله نقاتل ونجاهد... فالقضية من هذا الوجه ليست محصورة في جانب المظالم الشخصية وحسب كما تتصورون... فحين أرجعت لكم بعض حقوقكم سلمتم أنفسكم وتخليتم عن الجهاد، فأي حركة جهادية هذه، وأي مسلحون هؤلاء الذين لا يعرفون الغضب والإنتقام إلا لأشخاصهم وصفقاتهم، أما حق الله تعالى فلا بواكي له[264]...

إن قولكم: أن الجهاد جاء بالمفاسد؛ في حقيقته تحريم ما أحل الله وأوجب، وتجريم لحكم الله تعالى وشرعه ووصفه بألقاب من الطعن والذم، والمسألة من هذا الوجه كفر وردّة فاتقوا الله... لو أنكم اتهمتم أنفسكم العاجزة بالتقصير والتفريط لكان أولى لكم.

[264] لقد انتصرتم لأنفسكم ولم تنصروا الله... فلا تسألوا بعدها عن سبب فشلكم وخذلان الله لكم.

كما أن الواجب إن وجدت علة تمنع الخروج على طواغيت الكفر والردة أن تتضافر الجهود لإزالة هذه العلة ولتستأنف قوافل الجهاد السير في الجهاد، هذا هو الحل... وليس الحل الأدنى علة أو عقبة تعترضنا في الطريق نتخلى عن الجهاد ونرفع رايات الإستسلام والركوع للطواغيت، ونعلن على الملأ فشل العمل بما أمر الله به من الخروج على أئمة الكفر والطغيان وأنه لا يأتي إلا بالمفاسد.

كثير من الحركات تضع نفسها أمام خيارين لا ثالث لهما: اما الخروج على الطاغوت وإما الدخول في طاعته، فإن فشلوا لأسباب من عند أنفسهم؛ أعلنوا الطاعة والولاء والركون للظالمين.

إن الذي يسير في طريق نصرة هذا الدين وإعلاء كلمته والجهاد في سبيله، ينبغي أن يتوقع شيئا من البلاء وأن يروض نفسه على تحمل ذلك ويحملها على الصبر والثبات إذا ما نزل بساحته بلاء... فليس لأدنى هزة أو بلاء يرفع راية الإستسلام والإنبطاح ويقول يا ليتني لم أكن مع المجاهدين...

أنتم بالأمس كنتم خيرا مما أنتم عليه اليوم، بالأمس كان الناس يدعون لكم واليوم يدعون عليكم... وهذه عاجلة بشرى شؤم لكم أن يوضع لكم البغض في قلوب العباد والثناء السيئ على ألسنتهم... فالباطل لا يوضع له القبول.

لقد سبقكم مئات قبلكم من الإنهزاميين المداهنين لأهل الباطل ومع ذلك لم يتحقق لهم في الأمة إلا البغض والهجر واللّعن على ألسنة الناس، فأنتم تزيدون عدد هؤلاء المنبوذين من الأمة رقما لا أكثر ولا أقل... قلتم عن ماضيكم بأنه كان خطأ وأعلنتم البراءة منه، وحكمتم على أنفسكم بالجهل والغباء... فما الذي يضمن لنا ولغيرنا غدا أن تفاجئونا بالحكم على أنفسكم بسبب مبادرتكم هذه أنكم كنتم مخطئين وأغبياء.

ولقد أصبحتم شاهدي زور على الجهاد والمجاهدين ودليلا عند كثير من ضعاف النفوس على بطلان مبدأ الجهاد وأنه لا يجدي نفعا فسننتم سنة سيئة لكم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

إن قبولكم لنداء الطاغوت في هذا الوقت بالذات كان مؤذيا جدا وذلك من وجهين: أحدهما، انه باطل نسختم به حقا، ثانيا أن الأمة في هذه الأيام تعيش مرحلة مخاض وصراع بين الحق وأهله من جهة وبين الباطل وأهله من أخرى، وتواجه عدوانا عالميا اجتمع فيه الصليبيون والصهاينة والزنادقة المرتدون بقيادة راعية الإرهاب العالمي أمريكا، على الإسلام وأهله، والأمة في هذا الوقت أحوج ما تكون إلى نصير ومعين إلا أنكم أبيتم إلا أن تختاروا

الوقوف – وأنتم تعلمون أو لا تعلمون – في صف هذا الفريق الثلاثي الكافر ضد الأمة وضد طليعتها من المجاهدين المخلصين... وبئس ما اخترتم...

مددتم بمبادرتكم المشؤومة الطاغوت بحبل من القوة والشرعية والحياة على المستضعفين من المسلمين، في الوقت الذي يلفظ فيه أنفاسه ويتآكل ويفقد رصيده وشعبيته بين الناس... ضحّيتم بمصالح الدين والتوحيد بزعم الحفاظ على مصالح وهمية وظنية هي في حقيقة أكثرها مفاسد وشر، فلا أنتم على مصالح الدين حافظتم ولا أنتم بمصالح الدنيا حظيتم... لكن السؤال لا الذي تحسنون الجواب عليه: هو، من المستفيد من هذا الجهد وفي سبيل من يبذل ولصالح من سيصب جهدكم؟... لصالح الدعوة إلى الله أم لصالح الدعوة إلى الطاغوت[265]...

وما دمتم تسمون "تائبون"، ما هي حقيقة توبتكم؟ هل كنتم مسلمين فارتددتم أم كنتم مرتدين فأسلمتم، أيكم دخل في دين الآخر...؟!

برز الثعلب يوما في شعار الواعظينا ... ومضى في الأرض يهذي ويسب الماكرينا
ويقول؛ الحمد لله إله العالمينا ... يا عباد الله توبوا فهو "يقبل" التائبينا
وازهدوا في الطير إن خير العيش عيش الزاهدينا ... واطلبوا الديك يؤذن لصلاة الصبح فينا
فأتى الديك رسول من إمام الناسكينا ... عرض الأمر عليه وهو يرجو أن يلينا
فأجاب الديك؛ عذرا يا أضل المهتدينا ... بلّغ الثعلب عني عن جدودي السالفينا
عن ذوي التيجان ممن دخل البطن اللعينا ... أنهم قالوا وخير القول قول العارفينا
مخطئ من ظن يوما أن للثعلب دينا

* * *

الرسالة الخامسة؛ إلى المجاهدين في سبيل الله... صمام الأمان...

أما أنتم أيها المجاهدون... قرة العين وسويداء الفؤاد... غرة في جبين الأمة وبريق الأمل في ليلها الحالك... إليكم هذه الفقرات...

– قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}، فأخبر تعالى أنه لا بد عند وجود المرتدين من وجود المحبين المجاهدين... ووصفهم بالذلة والتواضع للمؤمنين، والعزة والغلظة

[265] مبادرة الجماعة الإسلامية المصرية، لأبي بصير، بتصرف يقتضيه سياق الموضوع.

والقوة على الكافرين بضد من كان تواضعه وذله ولينه لعباد القباب... ثم قال: {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} فأخبر الله تعالى أن هذا الخير العظيم والصفات الحميدة لأهل الإيمان الثابتين على دينهم عند وقوع الفتن ليس بحولهم ولا قوتهم وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء[266].

– "اعلموا أصلحكم الله أن من أعظم النعم على من أراد الله به خيرا أن أحياه إلى هذا الوقت الذي يجدد الله فيه الدين ويحي فيه شعار المسلمين وأحوال المؤمنين والمجاهدين حتى يكون شبيها بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فمن قام في هذا الوقت بذلك كان من التابعين لهم بإحسان {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}، فينبغي للمؤمنين أن يشكروا الله تعالى على هذه المحنة التي حقيقتها منحة كريمة من الله، وهذه الفتنة التي في باطنها نعمة جسيمة، حتى والله لو كان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار – كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم – حاضرين في هذا الزمان لكان من أفضل أعمالهم جهاد هؤلاء القوم المجرمين"[267].

– "من الفئات المنحرفة عن منهج الولاء والبراء؛ هي الفئة التي تدعوا إلى التصالح مع الحكومات الخارجة على الشريعة لمقاومة أعداء الأمة، وملخص منطقهم نتعاون مع اللص من أجل استعادة ما سرقه منا ونتصالح مع الفاجر من أجل الحفاظ على الأعراض التي انتهكها، ولو طردوا قاعدتهم لقالوا نتصالح مع اليهود والنصارى حتى نقنعهم بالخروج من بلادنا ويرحلوا في سلام عنا، ويطالبوننا بأن نكذب الواقع المشاهد ونصدق هذه الأوهام، وحاصل دعوة هؤلاء أيضا هو كف المقاومة عن العدو الأساسي للأمة وقياد المجاهدين إلى الخونة الذين يطفح تاريخهم بالجرائم ضد الإسلام"[268]...

– "قال الله تعالى ذاكرا بعض بركات الجهاد {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}، فذكر سبحانه أن الهداية للحق والتوفيق والتسديد إليه والبصيرة فيه وفي سبيله ينالها المجاهدون ويبارك الله لهم فيها بجهادهم الصادق في سبيل الله... فالمجاهدون الصادقون من أفقه الناس وأفرسهم بصيرة، ولذلك كان من قبلنا ليقينهم بثمرات الجهاد وبركاته إذا ما أعيتهم مسألة من مسائل الفقه أو العلم قالوا(اسألوا أهل الثغور)... وذلك أن المجاهد يتعين أن يدرس واقعه الذي يعيش فيه فيحيط به علما كما قد أحاط بفقه الجهاد الشرعي، فإذا ما فعل ذلك وصدق في جهاده أطلق الله بصيرته ببركات جهاده في الله

[266] الدرر السنية.
[267] المجموع: 420/28.
[268] الولاء والبراء، الظواهري.

وكان سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به فيصير فهمه وفقهه وإصابته أضعاف أضعاف من سائر الناس.

ومن ثمة فلا حاجة للمجاهدين لفقهاء ومنظرين من خارج صفهم لأن فقهاءهم الذين يوجهونهم ويتخيرون لهم الأولى والأنقى والأنكى من الجهاد والقتال؛ من أفقه الناس وأقواهم بصيرة، وذلك لان فقههم يولد من رحم الجهاد ومن ميادين القتال وخنادقه حيث الصدق مع الله والبعد عن الأهواء المضلة والشهوات المزلة، فإذا أضيف إلى ذلك ما ذكرناه من العلم بالشرع والإحاطة بالواقع لم تكد فراسة أحدهم تخطئ، فالمجاهد ومشايخه الربانيون هم الذين يقدّرون المصلحة في جهادهم والفائدة والثمرة في اختيار أهدافهم، وهم ليسوا بحاجة إلى فقه القاعدين المهترئ، ولا إلى تنظيرات الخوالف المنسحقة تحت أقدام الأنظمة وأسيادها الغربيين والأمريكان أو المندحرة أمام ثقافة العولمة وتهمة الإرهاب، ولا إلى أفهام المخلدين إلى الأرض من الصحفيين المارقين والكتاب العلمانيين والمفكرين المهترئين"[269].

- "ما أنزل الله من آية في القرآن إلا وقد عمل بها قوم، وسيعمل بها آخرون، فمن كان من الشاكرين الثابتين على الدين الذين يحبهم الله عز وجلّ ورسوله فإنه يجاهد المنقلبين على أعقابهم الذين يخرجون عن الدين ويأخذون بعضه ويدعون بعضه..."[270].

- "واعلموا أن الجهاد فيه خير الدنيا والآخرة وفي تركه خسارة الدنيا والآخرة قال تعالى: {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ} يعني إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة، فمن عاش من المجاهدين كان كريما، له ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ومن مات منهم أو قتل فإلى الجنة"[271].

"فالجهاد هو السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان وحفظ الأبدان وحفظ الأموال، وإن المجاهدين ولو شقّت عليهم الأمور فإن عواقبهم حميدة، كما أن الناكلين ولو استراحوا قليلا فإنهم سيتعبون طويلا"[272]...

ف "يجب جهاد الكفار واستنقاذ ما بأيديهم من بلاد المسلمين وأسراهم، ويجب على المسلمين أن يكونوا يدا واحدة على الكفار، وأن يجتمعوا ويقاتلوا على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، ويدعوا المسلمين إلى ما كان عليه السلف من الصدق وحسن الأخلاق فإن هذا من أعظم أصول الإسلام وقواعد الإيمان التي بعث بها الله رسله وأنزل كتبه وأمر

[269] الكلاب تنبح والقافلة تسير، المقدسي.
[270] المجموع: ص413.
[271] المجموع: 417/28.
[272] تفسير السعدي، قصة طالوت.

عباده عموما بالاجتماع ونهاهم عن التفرق كما قال تعالى: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}"[273].

أخي المجاهد:

– "اعلم أنك في زمان لو أن إبليس اتخذ دولة لوجد دعاة له يجعلون له حظا في الإسلام شريطة أن يعطيهم ثلاث خصال: الشهادة والمرتبة والمعاش"[274].

– "فإن قالوا لكم قد قتل في قتالكم في موقع كذا وكذا أطفال وصبيان والنبيّ صلى الله عليه وسلم قد نهى عن قتل الصبيان، قولوا لهم قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ونحن أعلم بذلك وأحرص على أمره ونهيه منكم ونعوذ بالله من أن نتقصدهم ولو فعلنا ذلك تبنا إلى الله، أما أنتم فقائمون مصرون على الكفر والحرام، ولذا لسنا بحاجة إلى فقهكم وتنظيركم.

"وكيف يحق لكم أن تظهروا بمظهر الحريص على الأطفال وأنتم من يتم أطفال الموحدين وأعدم آباءهم واستحل قتلهم لجهادهم وبراءتهم من شرككم... وأنتم أول من حارب دين الله وأولياءه، أما هم فلم يحاربوا إلا أعداءه، وإن قتل في جهادهم بعض الصبيان، قد وأدتم أبناء المسلمين وقتلتم الدين والحمية والتوحيد في قلوبهم بمناهج مدارسكم الفاسدة التي تنشئهم على الولاء لكم ولأوليائكم ولازلتم تسعون في فتنتهم عن دينهم وجهادهم{وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ}، ومن أصدق من الله حديثا"[275].

– وبمناسبة ذكر هؤلاء المحاربين عن الطواغيت المثبطين عن الجهاد فإني أحذّركم من صنفين من العلماء:

– الصنف الأول: العلماء الذين انكبوا على الكتب وانقطعت صلتهم بواقع الناس.

قال ابن القيم رحمه الله: (ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى بالحق إلا بنوعين من الفهم أحدهما فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط بها علما والثاني فهم الواجب في الواقع ثمّ يطبق أحدهما على الآخر)[276].

وقال: (أما قوله – أي الإمام أحمد في صفات المفتي –: الخامسة معرفة الناس لهذا أصل عظيم يحتاج إليه المفتي والحاكم فإن لم يكن فقيها فيه، فقيها في الأمر والنهي ثمّ يطبق

[273] المستدرك على المجموع: 255/3.
[274] رفع الإلتباس، لجهيمان العتيبي.
[275] الكلاب تنبح والقافلة تسير، أبو محمد المقدسي.
[276] إعلام الموقعين 87/1.

أحدهما على الآخر وإلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح فإنه إذا لم يكن فقيها في الأمر له معرفة بالناس يصور له الظالم صورة المظلوم وعكسه، المحق بصورة المبطل وعكسه وراج عليه المكر والخداع والاحتيال وتصور له الزنديق بصورة الصدّيق)[277].

- **الصنف الثاني**: الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا من مال أو منصب ونحوه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)[278].

قال ابن القيم: (وكل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه وخبره وإلزامه لأن أحكام الربّ سبحانه كثيرا ما تأتي على خلاف أغراض الناس ولاسيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات فإنهم لا تتم لهم أغراض إلا بمخالفة الحق ودفعه...)[279].

فاحذر من هذين الصنفين من أهل العلم خاصة في المسائل المتعلقة بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكل ما فيه مساس بسلطان الطواغيت.

وقد جمع ابن تيمية رحمة الله عليه الصنفين في قوله: (والواجب أن يعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا، دون أهل الدنيا الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين فلا يؤخذ برأيهم، ولا برأي أهل الدين الذين لا خبرة لهم في الدنيا)[280].

قال سيد قطب: (إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة، ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة، والذين يعكفون على الأوراق في هذا الزمان لكي يستنبطوا منها أحكاما فقهية يجددون منها الفقه الإسلامي أو يطورونه وهم بعيدون عن الحركة التي تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد وردهم للعبودية لله وحده بتحكيم شريعة الله وحدها، وطرد شرائع الطواغيت، هؤلاء لا يفقهون طبيعة هذا الدّين ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدّين)[281].

"ومما يعين على العلم الحق وربطه بالواقع على ضوئه الإلتفاف حول المرجعيات العلمية لهذا التيار - أي الجهادي - من العلماء العاملين والدعاة الربانيين الذين يقفون اليوم على

[277] إعلام الموقعين199/4.
[278] رواه أحمد عن كعب بن مالك.
[279] الفوائد: ص100.
[280] الاختلافات الفقهية: ص211، أنظر العمدة: ص260/259.
[281] الظلال: 1731.

أعظم ثغور الإسلام، بتصدّيهم لطواغيت الكفر وثباتهم في وجوههم وتصدّيهم لشبهات عملائهم من علماء السوء وأذنابهم من جماعات التجهيم والإرجاء، فواجب على شباب الأمة الاصطفاف خلف ذوي العدالة من العلماء الذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله، والالتفاف حولهم وحول كتاباتهم والإستفادة من تجاربهم وخبراتهم وعدم الزهد بها"[282].

– "أمّا أنتم أيها المجاهدون الصادقون فإن خير ردكم يلجم هؤلاء الأرذال ويدحرهم أن تهملوهم، أما ردّكم الماحق لشقشقاتهم فيتمثل بالثبات على جهادكم، ومواصلة الذبح والقتل والقتال لكل عدو لله على بصيرة من الله وعدم الالتفات لتنظيرهم فالقافلة تسير ولا يضرها نبح الكلاب.

بل ربما أطربتها نغمات ذلك النباح إذا تذكرت واستحضرت دوما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله في كل مكان من أنهم: (لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله".

وهذا التشويش على الجهاد والمزاودة على المجاهدين ليس بخلق جديد من أخلاق أعداء هذا الدّين، بل هو قديم قد مارسته قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين مرارا، وحاولوا استغلال بعض الحوادث والأهداف التي تخيّرها المجاهدون في أوقات معينة ليشنّعوا بها عليهم كما حصل في قصة قتل ابن الحضرمي الذي قتلته سرية رسول الله صلى الله عليه وسلم وغنموا ماله وأسروا معه رجلين في أول رجب الشهر الحرام ظانين أنه الآخر من جمادى الآخرة... فأنزل الله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنْ الْقَتْلِ}، وفي ذلك توجيه للمجاهدين أن لا يتضرروا بشغب أعداء جهادهم وتشنيعهم حول أهداف جهادهم وتوقيت عملياتهم... وذلك لأن كفر أعداء الدّين وصدهم عن سبيل الله وفتنتهم للمؤمنين أعظم من كل جناية قد يعيّر بها المجاهدون... فهم إذا ما صدرت منهم عن اجتهاد خاطئ فليسوا بحاجة لفقه المشركين وتنظيرهم لأنهم ليسوا بأحرص من المؤمنين على الحلال والحرام، وهذا كقول أبي فراس:

ومن أعجب الأشياء علج　　　يعرّفني الحلال من الحرام

فحذار أيها المجاهدون؛ أن تضعفوا أمام إرجافات أعداء الدّين، وحذار من أن يتضرر جهادكم بتشنيع أذنابهم... لستم بحاجة إلى فقه وتنظير الخوالف والمنهزمين الفرحين بقعودهم الراضين بتخلّفهم فطبع الله بذلك على قلوبهم فهم لا يفقهون ولا يعلمون، إذ أنه وكما أن الله

[282] وقفات مع ثمرات الجهاد: ص100، المقدسي.

تعالى يطلق بصائر المجاهدين في سبيله... فكذلك أيضا وفي المقابل يطبع على قلوب الخوالف القاعدين فيجعلهم من أجهل الخلق وأضئلهم فقها وعلما وتنظيرا، فكيف ترانا بعد ذلك سنعبأ بتنظيرهم المنهزم وتحليلهم المندحر"[283].

وعكة مصيرها إلى الإضمحلال، ولوثة وافدة تنطفئ عن قريب.

أيها المجاهدون:

إن التأثر بالمخالفين والتضرر بالمخذّلين آفة ومرض خطير له صور وتداعيات شتى وقد نخر في جماعات الأمة وطوائفها وصار عائقا من عوائق نهضتها وعقبة في سبيل نجاح جهادها وفلاح دعاتها... ذلك أن من اختار اللحاق بدرب الطائفة القائمة بدين الله الظاهرة على أمر الله فإنه لن يقوم بأمر هذا الدّين حق القيام ولن يظهره حق الظهور بأشرق صوره كما يحب ربنا ويرضى حتى يتحرر من آفة التضرر بالمخالفين ويتطهر من جميع صورها التي تحرفه أو تصده عن صراط الطائفة الظاهرة المنصورة ومنهجها القويم[284].

ف "استمسك بما أنت عليه من الحق المبين من أنوار الوحيين الشريفين وسلوك جادة السلف الصالحين ولا يحركك تهييج المرجفين وتباين أقوالهم فيك عن موقعك فتضل... ولا يثنك هذا الارجاف عن موقفك الحق وأنت داع إلى الله على بصيرة، فالثبات الثبات متوكلا على مولاك والله يتولى الصالحين"[285].

فاصبر عليه وكن بربك واثقا   هذا الطريق إلى الهدى والسؤدد

- إن الجائحة التي أصابت أمتنا كانت كافية أن تقضي على أعظم الأمم وأوفرها حظا... إن بدايتكم هذه وأنتم الضعفاء هي نهاية الأقوياء ذي الطول والحول، والدولة والصولة هذه المنقبة التي خصكم الله بها... فما رأى الناس قبلكم أمة في مثل حالكم من الضعف والفقر والجهل والهوان تثب هذه الوثبة من إيمانها... نبني نهضتنا من أول يوم على أساس من الإسلام مكين وحائط من العروبة متين وعلى سبب من الحكمة رزين وسند من العقل رصين... الإيمان والإرادة والعزيمة والحزم والتصميم، وسائل ما اجتمعت في شيء إلا أتت بالعجائب، وما تعاونت على شيء إلا أضفت عليه الوجود والخلود... افخروا فقد حزتم الفخار من أطرافه، إنكم لم تبنوا دارا إنما بنيتم أجيالا وأقمتم دينا وكتبتم تاريخا... الحاجة يا إخواني إلى العلم ملحّة والخصم في القضية لدود، فلا ترهبوا الظالمين ولا تسمعوا للمرجفين

[283] القافلة تسير والكلاب تنبح المقدسي.
[284] وقفات مع ثمرات الجهاد المقدسي: ص91.
[285] تصنيف الناس بكر أبو زيد.

ولا تلتفتوا إلى الناعقين فإن فيهم الحسود وفيهم الحقود ومنهم المسخَر وكلهم عدو لكم، فأغيظوهم بالعمل الصالح واحذروهم كما تحذروا الشيطان...

أعيذكم أيها الإخوان أن تقنعوا في نهضتكم بغاية أو تقفوا عند حد... إن القناعة إنما تحصل فيما يقيم الجسم لا فيما يقيم الأمة وأن آية الأمة المهيأة للخير أن لا تفرغ من مأثرة إلا لتبدأ مأثرة ولا تنفض أيديها من عمل إلا لتضعها في عمل، فكونوا دائما مستعدين، واجعلوا هدفكم دائما العظائم لا الصغائر، وقد جرّبتم الإيمان وماذا يصنع، وجرّبتم التعاون وأنه ينفع، وجربتم الثقة في الله فأتت بالعجائب، شدوا الحيازم واعتمدوا على الله وثقوا بعونه ولا يدخل اليأس قلوبكم من عثرة الخطأ فرب نجاح باهر وليد هزيمة مرة... ومعالي الأمور لا يقوى عليها إلا الأفذاذ أصحاب الهمم العالية...

عن سلمة بن نفيل الكندي قال: (كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل يا رسول الله أذال الناس الخيل ووضعوا السلاح وقالوا لا جهاد قد وضعت الحرب أوزارها فأقبل رسول الله بوجهه وقال: كذبوا الآن الآن جاء القتال ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة وحتى يأتي وعد الله)[286].

لقد أفتاكم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قال: (كذبوا الآن الآن جاء القتال)، وقد آلينا على أنفسنا أن لن نحيد عن كلام وحكم وفتاوى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم...

على المجاهد أن يتذكر دوما "وفي أعتى الظروف وأشد القروح ويستحضر الصفقة والبيعة التي عقدها مع مولاه؛ {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} فلا ينقض هذه البيعة ولا يستقيل منها ولا يقبل فيها خيارا أو يبغي عنها حولا أو يرضى بها بدلا.

وما يعينه على ذلك؛ أن يتذكر كرم المشتري وشرف الثمن الذي يقبضه عوضا عن نفسه وماله وعظم الثواب الذي ينتظره على هذه البيعة، ومن ثمة عظم الخسارة إن فرط فيها، فلا يخون أمانته التي تحملها أو ينقض بيعته التي بايع عليها، ويتذكر دوما قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}.

[286] أخرجه النسائي وأحمد والطبراني والبخاري في التاريخ الكبير، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 1935.

ويعنيه الدوام على ما وصف الله تعالى به أهل هذه البيعة؛ {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ}، فإن هذا مما يقوي اعتصامه بالله ويربط على قلبه ويثبته ويقوّيه...

ويعينه استحضار ترغيبه سبحانه للمؤمنين ووعيده للخائنين... فعذاب أعداء الله وسجونهم وأذاهم وإهانتهم وترهيبهم لا يساوي غمسة واحدة في جهنم؛ {وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ}... كما أن ترغيبهم وعطاءهم ووعودهم لا تساوي غمسة واحدة في أدنى درجات الجنة[287].

- "واعلموا - أصلحكم الله - أن النصرة للمؤمنين والعاقبة للمتقين، وأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وهؤلاء القوم مقهورون مقموعون، والله سبحانه وتعالى ناصرنا عليهم، ومنتقم لنا منهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، فأبشروا بنصر الله تعالى وبحسن عاقبته {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}، وهذا أمر قد تيقّناه وتحقّقناه، والحمد لله رب العالمين"[288].

فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

"وأما عن المبادئ ومقتضياتها فإننا نعيد التذكير والتأكيد على ما ندين الله به، رغم ما حل بنا من العناء وما نعانيه من كربات البلاء نسأل الله الثبات على الحق والعزيمة في الرشد وأن نلقاه على ما يرضيه غير مبدّلين:

- فإننا نشهد الله على إيماننا بأن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون الظالمون الفاسقون.

- وإننا نشهد الله على اعتقادنا بقوله: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}، وبمعناها كما بينه علماء الإسلام الأثبات من قدماء ومعاصرين {فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} أي كفار مثلهم.

- وإننا نشهد الله أن حكام بلاد العرب والمسلمين الذين تلبّسوا بهذه وتلك على مرّ تاريخهم ولا سيما في هذا العهد الأمريكي ومنهم حكام الجزائر منذ الإستقلال وإلى الآن ومنهم بوتفليقة هم مثل أقرانهم، كفرة مرتدون خونة محاربون لله ورسوله والمسلمين، ولا تجوز

287 وقفات مع ثمرات الجهاد: ص102/101 بتصرف يسير.
288 المجموع: 419/28.

ولايتهم على المسلمين شرعا ولا عقلا، ويجب إسقاطهم مع توفر القدرة على ذلك أو الإعداد له عند العجز...

– وما زلنا نعتقد أن الديمقراطية مبدأ كفري يتناقض جملة وتفصيلا مع دين الإسلام وأن ممارستها لا تجوز شرعا، فضلا عن أنها مضيعة الأوقات والأعمار، وما جرى في الجزائر وغيرها عبر عشرات السنين يكفي كل عاقل"[289].

من ذا الذي يبارز فليقدم نفسه أو من يسابق فليبْد في الميدان
فالله ناصر جنده وكتابه والله كاف عبده بأمان
لا تخش من كيد العدوّ ومكرهم فقتالهم بالكذب والبهتان
فجنود أتباع الرسول ملائك وجنودهم فعساكر الشيطان
فاثبت وقاتل تحت راية الهدى واصبر فنصر الله ربك داني

الخاتمة

[289] مختصر شهادتي على الجهاد في الجزائر: ص74 بتصرف أبو مصعب السوري.

وبعد هذا كله... فقد بذلت جهدي في نقل الحق عن قائليه المؤالفين والمخالفين ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حيّ عن بينة، "فمن نور الله قلبه هداه بما يبلّغه من ذلك، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالا"[290]...

وفي الأثر عن سعد بن أبي وقاص لما دعي إلى الخروج في الفتنة قال: (إن مثلي ومثلكم كمثل قوم كانوا في فلاة، بيّنة طريقهم، فثارت ريح عجاجة فالتبست عليهم الطريق فقال قوم: الطريق ذات اليمين فسلكوا فيها فتاهوا وضلّوا، وقال قوم الطريق ذات الشمال، فسلكوا فيها فتاهوا وضلوا، وقال آخرون: كنا على الجادة حين ثارت الريح فلنثبت على ما كنا عليه حتى تذهب الريح العجاجة، فنيخ فأناخوا فأصبحوا وقد ذهبت الريح وتبيّنت الطريق...).

"وختاما:

فإن نصرة هذا الدين بالقيام به وإظهاره على الدين كله من أعظم المقاصد التي بعث الله به الرسل من أجلها، كما قال: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}.

فهنيئا للثابت من أهل هذه الطائفة على هذا الأمر العظيم، هنيئا لمن وفّى بهذه البيعة ولم يبدّل تبديلا، فما هي إلا أيام، وعند الصباح يحمد القوم السُرى.

{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}"[291].

وسبحانك اللهم وبحمدك
أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك



تمّ الفراغ من كتابتها
ضحى يوم الإثنين
25/جمادى الآخرة/1426هـ
الموافق لـ 1/أوت/2005م

[290] المجموع: 665/10.
[291] وقفات مع ثمرات الجهاد: ص104.